أهل البيت(ع) وقضايا المسلمين

أهل البيت(ع)
وقضايا المسلمين

غسان نعمان ماهر السامرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 1435هـ/ 2014م

الناشر:
هاتف:
بريد إلكتروني:

المحتوى

مقدمة – بين يدي البحث 9

الأسباب المطروحة لمآسي المسلمين ومشاكلهم 11

العلاقة المفترضة لأهل البيت(ع) 15

ثلاثة أسئلة 16

الفصل الأول – البحث في السؤال الأول متى بدأ الخلل؟

مسؤولية منع أهل البيت(ع) من الحكم ووصول الحكام المنحرفين إلى السلطة 19

أول فتنة وأول حرب داخليتين 22

تجاوزات الخليفة 23

طريقة استخلاف الخلفاء الأوائل 25

إستخلاف الخليفة الثالث أو شورى الستة 25

إستخلاف الخليفة الثاني أو نص الأول على الثاني 29

إستخلاف الخليفة الأول أو بيعة السقيفة 30

دور أبي سفيان ودور أبي عبيدة الجراح 32

تجميع الخيوط وشهادة المستفيدين 34

خلاصة البحث التاريخي في استخلاف الأوائل 36

كلمة لمن يرفض هذا التحليل لتلك الأحداث 37

تذكير بالهدف 41

الفصل الثاني – البحث في السؤال الثاني دور أئمة أهل البيت(ع) في الإسلام 49

ماذا تقول الآيات والروايات؟ 50

أولاً: هم الأئمة المنصوص عليهم في خلافة رسول الله(ص) 50

ثانياً: وبأنهم واجبو الإتباع 50

ثالثاً: وبأنه لا تجوز مخالفتهم 52

نظرة سريعة إلى سيرة الأئمة من آل محمد(ص) ومقارنتها مع سيرة غيرهم 54

1 المسؤولية تجاه الأمة 55

2 تقديم مصلحة الإسلام على مصلحتهم(ع) الشخصية 60

3 العدل 61

4 الطاعة الكاملة للشرع الأقدس 62

5 التعامل بالحسنى مع الرعية 65

6 حق الأمة في البيعة 66

7 تعليم الأمة حساب حكامها 70

8 الحرص على علوم الشريعة: الكتاب والسنّة 71

9 التعامل مع الخصوم 75

10 تطوير الأمة علمياً في المجالات المختلفة 80

11 إيجاد الحلول للمشاكل المستحدثة في الأمة 83

الخلاصة في دور أهل البيت(ع) 84

الفصل الثالث – البحث في السؤال الثالث مسؤوليتنا من أجل التغيير 115

مسؤولية أتباع أهل البيت(ع) 116

1 مسؤولية إعداد الذات 116

2 مسؤولية إعداد الأهل 119

3 المسؤولية تجاه الأئمة(ع) 120

4 المسؤولية تجاه الإخوان المؤمنين 121

5 المسؤولية تجاه غير الشيعة (أهل السنّة) 122

شروط الدعوة إلى أهل البيت(ع) 123

6 المسؤولية تجاه الإمام المهدي(ع) 127

بعض الشبهات الخاصة بطبيعة الانتظار 128

أسباب تأخر الظهور / شروط الفرج 129

زماننا وزمان الظهور 132

مسؤولية غير الشيعة 136

الحد الأول من المسؤولية: البحث عن الحق 138

الحد الثاني من المسؤولية: التعامل بشكل علمي 139

الحد الثالث من المسؤولية: إتخاذ الموقف الإيجابي 140

بعض آيات الكتاب العزيز (تبصرة وذكرى) 141

كلمتا تنبيه إلى إخواننا أهل السنّة 143

كلمة أخيرة – إحترام العقل وتفعيل التقوى واستثمار الطاقات 155

ملحق 157

1 عقيدة الشيعة في أهل البيت(ع) 157

2 حديث الثقلين 165

3 حديث وبيعة الغدير 169

4 حديث الإثني عشر خليفة 173

5 أحاديث المهدي المنتظر(ع) 179

6 آية المودّة 180

7 شبهات حول شيعة آل محمد(ص) 181

مقدمة

بين يدي البحث

ينتقد بعض المسلمين أتباع أهل البيت(ع) بأنهم يولون موضوع أئمة أهل البيت(ع) وموضوع خلافة النبي(ص) جزءاً كبيراً من اهتمامهم وجهدهم إلى درجة الإفراط، وأنهم يعيشون في الماضي أكثر مما في الحاضر، وأنهم يعيشون أسر خلافات حصلت في الماضي البعيد ولم يعد لها اليوم أي أهمية أو دور في حياة المسلمين.

وتأسيساً على ذلك، فإن بعض هؤلاء يوجهون الاتهام إلى أتباع أهل البيت(ع) بأنهم إنما يفعلون ذلك رغبة في زيادة الفرقة الطائفية بين المسلمين وأنهم غير مستعدين للتعاون لحل مشاكل المسلمين الحاضرة. ويذهب البعض من هؤلاء أبعد فيتهم الشيعة بأنهم إنما يفعلون المنتظر من دورهم في شق وحدة المسلمين منذ تأسيسهم على يد أعداء الأمة إلى آخر الاتهامات المعروفة.[1]

ولسنا هنا نناقش هذه الاتهامات، وإنما نريد أن نوضح كيف أن ما يعده الشيعة مهماً، بل له الأهمية القصوى في الإسلام، هو ليس فقط كذلك

لدوره الأساسي في حياة الأمة الإسلامية في الماضي البعيد، ولكن أيضاً لارتباطه الشديد بواقع المسلمين اليوم والذي يشهد مآسي قلّ نظيرها في التاريخ، وما مأساة البوسنة والهرسك[2]، وأوضاع المسلمين، بلداناً وشعوباً، بالخصوص في العراق وأفغانستان منذ بداية الألفية الثالثة، ومن قبل ذلك وبعده مأساة فلسطين وآثارها الهائلة في المنطقة العربية، إلا مثالاً صارخاً ودامياً لما سنقول.

وبعيداً عن أن وصايا النبي(ص) والأئمة(ع) من بعده تدوي في أذن من يريد أن يسمع من المسلمين بضرورة تنبيه المسلمين في كل زمان ومكان إلى دور الأئمة(ع) في الإسلام، عقيدة وشريعة وتاريخاً وجغرافيا ودنيا وآخرة، كما في أمر النبي(ص) للمسلمين بعد أن صدع ببيعة أمير المؤمنين وأولاده في يوم الغدير بأن «يبلّغ الشاهد الغائب»[3] وهي تنطبق على جميع الغائبين منذ العصر الأول وإلى قيام يوم الدين، أو وصية الأئمة(ع) وحضّهم على إحياء أمرهم، داعين لهم بالرحمة «رحم الله من أحيا أمرنا»[4]. وغير ذلك الكثير...

وبعيداً عن المنطق السليم الذي يطالب المسلم بأن يصرح من يتبع آل محمد(ص) ويبين ويوصل وصية النبي(ص) وتركته بأن يتمسك المسلمون بما أمر الله بالتمسك من الكتاب العزيز والعترة الطاهرة[5]...

وبعيداً عن المنطق السليم الذي يطالب أجيال الأمم بأن ينظروا ويفحصوا بدقة في تاريخهم لاستخراج القدوة الحسنة كي يقتدوا بها ويستخلصوا الدروس من تاريخهم كونه الأقرب إلى حاضرهم من تاريخ الأمم الأخرى...

بعيداً عن كل ذلك، دعونا نتناول باختصار شديد أي مشاكلنا من مشاكلنا الكبيرة، بل مآسينا الحالية، لنرى إن كان هناك ارتباط لقضية أهل البيت(ع) بها أم لا، ومنها لنخلص إلى أن قضية أهل البيت(ع) وثيقة الصلة بغيرها من مشاكلنا أم لا، وبالتالي إن كان البحث في أهل البيت(ع) ودورهم في الإسلام قديماً وحديثاً مهماً أم لا.

الأسباب المطروحة لمآسي المسلمين ومشاكلهم

عندما يعدد المسلمون أسباب مآسي المسلمين ومشاكلهم، فإنهم يدرجون ما يلي:

1. ضعف المسلمين.
2. تشتّت شمل المسلمين وتفرّق كلمتهم.
3. إفتقار معظم حكام المسلمين إلى القدر الأدنى المطلوب من الإخلاص والكفاءة.
4. إبتعاد المسلمين شعوباً وحكومات عن الالتزام الحقيقي بالإسلام لا سيما في جانب الأحكام الشرعية.
5. غياب القيادة الواحدة.
6. تآمر أعداء الأمة الخارجيين.

وهذه الأسباب تعطى عادة في مجمل مشاكل المسلمين ومآسيهم كفلسطين وكشمير والبوسنة وغيرها.

ونسأل أولاً: هل أن هذه المشاكل وليدة الأمس القريب، السنوات القليلة الماضية، العقود الماضية، بداية القرن العشرين حيث سقطت الخلافة العثمانية، أو حتى منذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد قبل تسعة قرون؟

لا شك في أن بعض هذه الأسباب لم يكن موجوداً، وإذا كان فإنه لم يكن مؤثراً بشكل كبير. إلا أن معظم هذه الأسباب تعود بداياتها إلى ما قبل ذلك كله، فهي تعود إلى الدول الإسلامية الأولى كالأموية، وبداية الدولة العباسية، والدولة الأموية في الأندلس وغيرها من الدول والدويلات التي حكمت مناطق كثيرة من الوطن الإسلامي بعيداً عن العواصم التي كانت تعتبر العاصمة الشرعية للخلافة كدمشق أو بغداد أو اسطنبول. بل وإلى الممهد للإطار غير الشرعي لهذه الدول والنهج غير الإسلامي لحكامها.

إن مجرد الاعتراف بوجود خلفاء مبايعين في وقت واحد، كما حدث في القسم الأكبر من تاريخ الدولة الإسلامية، إن لم يكن في تاريخها كله، دليل على أن غياب القيادة الواحدة عمره عمر الدولة الإسلامية ذاتها. وكان من الممكن لهذا السبب أن يبقى تأثيره السلبي في حيّز محدود لو أن حكام المسلمين المختلفين آثروا التعاون فيما بينهم على التخاصم والتناحر والتقاتل، والذي تم أحياناً بالاستعانة بأعداء الأمة كما حصل في الأندلس حيث كان ملوك دويلات الطوائف يستعينون بالأسبان المسيحيين في قتال بعضهم البعض إلى أن استطاع الأسبان أن يبتلعوا الأندلس قطعة قطعة.

وأصغر دارس للتاريخ يعرف الحقد والكراهية والعداء بين الأيوبيين والفاطميين، والفاطميين والعباسيين، والأمويين والعباسيين، والعثمانيين والإيرانيين، بل بين حكام الدولة ذاتها كما بين الأمين والمأمون، الأخوين الذين لم يجلسا إلى طاولة المفاوضات بل ذهبا إلى ميدان القتال لحل النزاع بينهما، وبعد أقل من قرنين فقط من الخلافة الإسلامية، وكما بين ملوك الأندلس وملوك الهند والمماليك وغيرهم.

وطالما كان الحكام يقودون شعوبهم بالحديد والنار، وصارت الشعوب مسلوبة الإرادة، تحول صراع الحكام إلى صراع بين الشعوب، فصار الصراع صراعاً بين العربي والفارسي، والفارسي والتركي، والمغولي وغيرهم وهلّم جرّا. وهنا صار تشتت شمل المسلمين معلماً بارزاً من تاريخ الأمة الإسلامية مدى القرون.

وما كان كل ذلك ليحدث لو تمتع الحكام بقدر أدنى من التقوى، فالمتتبع للتاريخ يرى صوراً مخزية وبشعة للجرأة على دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم من قبل الحكام وولاتهم وقوادهم. كما ويرى صوراً مخزية لميوعة بعض الحكام وولعهم بالتافه من الدنيا كصيد القرود وعشق المغنيات والولع بالغلمان وما إلى ذلك من صور الشذوذ[6]. وزاد الطين بلّة أن معظم هؤلاء لم يكونوا على صدر أدنى من الكفاءة، فصاروا ألعوبة بيد مستشارين يبحثون على منفعتهم الخاصة ليس إلا، بل صار بعضهم ألعوبة بين خدمه ونسائه وغلمانه[7].

فهل بعد كل هذا يمكن إيقاف عجلة سير المسلمين إلى الوراء وإبقاء شيء من قوتهم؟ هل لنا أن نتوقع إلا وصولهم إلى أشد درجات الضعف؟

وإذا كان لضعف المسلمين أن يعوض بصفات أخرى في القرون الماضية فهل يمكن له أن يعوض في هذا الزمان وقد امتلك أعداؤهم الأسلحة الفتاكة وتسيّدوا العالم الذي صار صغيراً جداً بحيث صار حكمه من قبل أعداء الأمة أمراً ليس عسيراً لا سيما بلحاظ ضعف المسلمين وتشتت شملهم؟

وبعد أن بدأت عجلة الثورة الصناعية بالدوران في أوروبا المسيحية بدأ التآمر المعادي الخارجي يأخذ أشكالاً أكبر تأثيراً من ذي قبل لأن الأوروبي صار يمسك بالآلة العلمية بيد والآلة الحربية التي طوّرها العلم باليد الأخرى وبدأ يغزو بلاد المسلمين بما لا قبل لهم به من آلة الحرب والعلم مع الدهاء والخبث، وذلك بعد أن كان قد بدأ بدراسة أحوال المسلمين خفية عن طريق مبعوثيه سواء ممن كانت له الصفة الرسمية الدبلوماسية (سفير لدى الباب العالي في إسطنبول مثلاً) أو مدعي الإسلام من جواسيس أرسلوا بهم إلى شتى بقاع العالم الإسلامي، وصار الأوروبيون المسيحيون وسطاء لحل نزاعات المسلمين (مثلاً مؤتمر لندن لحل النزاع المسلح بين الدولة العثمانية ومحمد علي حاكم مصر سنة 1840 واتفاقية باريس نهاية حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا سنة 1856). ومكّن هذا التقدم العلمي أوروبا من غزو العالم الإسلام بنجاح بعد أن فشلت في حملاتها الصليبية الأولى ليس لأن المسلمين كانوا أحسن إسلاماً، على الرغم من أنهم كانوا أحسن نسبياً، ولكن لأن الغربيين كانوا يفتقرون إلى الآلة الحربية الحاسمة والتي بدأ امتلاكها بصناعة البارود والأسلحة التي تطلقه، ثم ما تطور إثر ذلك عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى التي انتهت باحتلال ما تبقى من العالم الإسلامي.

وهكذا، لم يكن دخول أوروبا المسيحية في القرنين الماضيين (شرقي آسيا والهند والجزائر ومصر والسودان واليمن والخليج)، ومن ثم استكمال الاحتلال في مطلع هذا القرن، إلا أمراً كان حصوله حتمياً ونتيجة طبيعية للانحدار المستمر في وضع المسلمين، دولاً وشعوباً وحكومات، طيلة القرون التي سبقت.

العلاقة المفترضة لأهل البيت(ع)

بعد هذا العرض، نسأل ثانياً: أين أهل البيت(ع) من كل ذلك؟ وهل كان لهم دور أساسي؟

وإذا كان لهم دور، فهل لهذا الدور علاقة بما حصل في حياة المسلمين عبر القرون؟

وهل كان لهم أن يغيّروا اتجاه الريح إلى ما تشتهيه سفينة المسلمين كي تبحر بهم، بل بالبشرية أجمع، إلى شاطئ النجاة؟ ومن المسؤول عن تعثّر حركة الفتح الإسلامي ثم توقفها ثم ارتدادها بالضد على المسلمين حتى عاد المسلمون سبايا ورعايا بعد أن كانوا أسياداً وحكاماً؟

من المسؤول عن توقف حركة الفتح الإسلامي حتى صارت البوسنة وألبانيا مجرد جزيرتين صغيرتين في المحيط المسيحي الأوروبي بدلاً من أن تكونا جزءاً من أوروبا المسلمة؟

من المسؤول عن عدم وصول الإسلام إلى جميع أنحاء الأرض بحيث كانت أوروبا كلها ستكون ليس فقط أرضاً إسلامية بل كان الفتح الأوروبي للأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا سيكون فتحاً إسلامياً بيد فاتحين مسلمين؟ من المسؤول عن ذلك؟

ثلاثة أسئلة

نحن هنا أمام ثلاثة أسئلة:

الأول: متى بدأ الانحراف؟ (وقل معه: متى بدأ منع أهل البيت(ع) من الحكم؟)

الثاني: دور أئمة أهل البيت(ع) في الإسلام

الثالث: مسؤوليتنا نحن من أجل التغيير

أما السؤال الأول فهو: إذا كان هؤلاء الحكام على هذه الدرجة من عدم الصلاحية للقيادة كيف وصلوا إلى هذا المنصب الخطير في قيادة المسلمين؟ أو مسؤولية وصول الحكام المنحرفين إلى السلطة؟

وأما الثاني فهو: عن دور أهل البيت(ع) إن كان لهم دور أساسي وفيما إذا كان هذا الدور سيكون ملبياً لحاجة المسلمين في تجنب ما حصل من شروخ وتدهور وضعف وفرقة ومن ثم استسلام للأجنبي.

والثالث هو: عن إمكانية التغيير الآن أو مسؤوليتنا نحن.

❖ ملاحظة حول الهوامش والملحق

هذه الفصول كانت قد كتبت كمقالات، لذا لم يكن الاهتمام إضافة المصادر، ثم لما قررت أن أجعلها كتاباً صارت المصادر ضرورية. أيضاً، إضافة ما يمكن أن يوضح نقطة هنا أو فكرة هناك تحتاج إلى نص أو جملة توضيح، ولكني لم أشأ أن أشوش على النص الأصلي للفصول الذي يهدف إلى عرض الموضوع بشكل لا إطالة فيه، لذا أضفت مثل هذه التوضيحات أو النصوص في الهوامش أيضاً. لذا، يجد القارئ الكريم أن الهوامش كثيرة وبعضها يتضمن أكثر من المصادر.

نفس الشيء بالنسبة إلى الملحق، الذي تضمن عرض موجز ومصادر لبعض موارد الكتاب والسنة في أهل البيت(ع)، مما لم أشأ أن أضيفه في الأصل لأن بعض القراء لا يحتاجون إليه، ولكن البعض الآخر ربما احتاج إليه.

---

[1] أنظر الملحق حيث ضممنا موجزاً عن عقيدتنا في أئمة أهل البيت(ع) كذلك الشبهات التي تثار حول الشيعة مع ردودها.

[2] كتبت المقالات أيام حرب البوسنة والهرسك ما بين 1992-1995، التي لم تنته إلا بمأساة مفجعة بمقتل تسعة آلاف مسلم في بلدة سربرنيتسا، قتلوا صبراً أمام أعين القوات الدولية (ولا تزال القبور الجماعية يتم العثور عليها إلى اليوم ونحن في عام 2012).

[3] مصادر حديث وبيعة الغدير (راجع الملحق).

[4] وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج12 ص22، والكافي، الكليني، ج2 ص175.

[5] حديث الثقلين ومصادره (راجع الملحق).

[6] من أمثلة ذلك الخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب والحمام ويجلس إلى المغنيات. أنظر رسالة الحسين(ع) إلى معاوية: الإمامة والسياسة ج1 ص157 وص161، والتي يصف يزيد في آخرها بقوله(ع): ((وليس الله بناس لاخذك بالظنة ... وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام حدث يشرب الشراب ويلعب بالقرود)).

[7] من أمثلة ذلك العصر العباسي حتى قال الشاعر:

خليفة في قفص ** بين وَصِيفٍ وبُغا

يقول ما قالا له ** كما تقول الببغا!

يصف حال الخليفة المستعين (تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص278).

الفصل الأول

البحث في السؤال الأول

متى بدأ الخلل؟

مسؤولية منع أهل البيت(ع) من الحكم ووصول الحكام المنحرفين إلى السلطة

نجيب على هذا السؤال الأول بالنظر نظرة سريعة مختصرة نراجع بالتاريخ شيئاً فشيئاً لنتبين نقطة البداية في هذه المسيرة الانحدارية.

هناك اتفاق بين المسلمين على أن الضعف في بنية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي قد بدأ منذ الدولة الأموية حيث يخبرنا التاريخ عن الثورات التي قام بها العلويون والخوارج وغيرهم في شتى بقاع الدولة الإسلامية. وفي بعض الأحداث كان سلطان الدولة ينحسر عن منطقة كبيرة أو مهمة لسنوات عديدة كما حدث في ثورة المختار الثقفي في العراق وثورة عبد

الله بن الزبير في الحجاز[8]. وهذا يعني رفض شرعية الحكم من قبل فئات مهمة من المسلمين وفي مناطق هي القلب من الدولة الإسلامية.

ومن يقرأ في أحداث هذه الثورات وفي تعامل الدولة معها يقتنع دون مشقة أن حكام الدولة الأموية، ومن بعدها العباسية وما تلاهما، لم يكونوا يمتلكون القدر الأدنى من التقوى والالتزام بمشاعر الأمة، فكانت الثورات يقضى عليها بأقسى ما يمكن من الإجراءات، وكان المعارضون يتعرضون للحبس والنفي والتعذيب والقتل بشتى الطرق. ولعلني لا أحتاج أن أذكر أكثر من أسلوب تعامل الحكم مع ثورة الحسين بن علي(ع) في العراق وثورة ابن الزبير في الحجاز. ففي الأولى كانت المعاملة الوحشية مع الحسين(ع) وأهله وأصحابه، على قلتهم، من قبل جيش الدولة، على كثرته، ما سوّد صفحات التاريخ إلى يومنا هذا، مما تعجب منه المسلمون وغيرهم، ودل بشكل واضح وضوح الشمس على افتقار السلطة وحكامها وولاتهم وجيوشهم إلى القدر الأدنى من الشعور الأخوي الإسلامي، ومن الخوف من الله تعالى وهم يفعلون بأهل النبي(ص) وأنصاره ما لا يفعله أشد الأعداء خصومة من مسلمين وغيرهم[9].

وأما الثانية فقد أكدت بما لا مزيد عليه عدم وجود رادع أمام حكام الدولة وولاتهم وجيشهم في مهاجمة أقدس الرموز في أقدس البقاع وهي الكعبة المشرفة إذ ضربت بالمنجنيق وحرقت وسط الأهازيج الشعرية للمهاجمين بقيادة قائدهم الحصين بن النمير.[10]

وبين الثورتين يجب ألا ننسى استباحة المدينة المنورة على عهد يزيد بن معاوية بعد قتل الحسين(ع) وأنصاره كما يستبيح أي غازٍ كافر أرض المسلمين فيقتل وينهب ويهتك الأعراض.

كان هذا تعامل حكام المسلمين مع أقدس الوجودات في حياتهم: آل الرسول(ص) من جهة وبيت الله الحرام ومدينة رسوله(ص) من جهة أخرى. ولا نحتاج إلى جانب ذلك أن نذكر تعاملهم مع غير هذه المقدسات.

وعلاوة على الأسلوب غير الإسلامي ولا الإنساني في التعامل مع هذه الثورات، فإن الفترة الزمنية التي حدثت فيهما تدل على أن تدني مستوى حكام المسلمين وكذا تفرق كلمة المسلمين بدأ منذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري. وهذا هو (خير القرون) حسبما يعتقد بعض المسلمين بناء على بعض الروايات، فكيف بما بعده من القرون[11].

وفيما يخص الحياة الخاصة للحكام أنفسهم فقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق. وكل هذا يدل دلالة قاطعة على عدم أهلية هؤلاء الحكام وبالتالي عدم شرعيتهم، لأن من ليس أهلاً لا يمكن أن يكون تنصيبه شرعياً – عقلاً ونقلاً. ولكن هناك اتفاق بين المؤرخين على أن الصراع على السلطة والثورات ضدها قد بدأ قبل عصري يزيد وعبد الملك بن مروان اللذين ألمحنا إلى تعاملهما غير الإسلامي مع الثورات في عهديهما. فقد سبق رفض الحسين(ع) بيعة يزيد بن معاوية رفض معاوية في الشام بيعة الحسن بن علي(ع) في العراق ورفض الحسن(ع) بيعة معاوية في الشام، ومن ثم استنفار الفريقين لجيشيهما للقتال الذي لم يبدأ لموافقة الحسن(ع) على الصلح[12]. وسبق ذلك رفض معاوية بيعة علي بن أبي

طالب(ع) في العراق بعد مقتل عثمان[13]. وأما الثورات فقد سبق الصحابة غيرهم في الثورة على بعضهم البعض عندما تمرد طلحة والزبير وعائشة على علي(ع) بعد البيعة (وكان الأولان قد بايعاه طوعاً بل كانا أول من بايعه)[14] وتجميعهم الجيش في البصرة وإسقاط سلطة علي(ع) فيها، ومن ثم مسير علي(ع) إليهم وإنهاء تمردهم عام 36هـ.[15]

بعد ذلك كانت الحروب بين الخليفة علي(ع) وبين المتمرد معاوية في صفين، ومن ثم حرب علي(ع) مع الخوارج في النهروان.[16]

أول فتنة وأول حرب داخليتين

ولكن، سبق كل ذلك الأحداث التي يسميها بعض المسلمين فتنة وبعضهم الآخر ثورة والتي أدت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان في عقر دار الإسلام، المدينة المنورة، وبوجود ألوف الصحابة الذين قاد بعضهم هذه الأحداث ضد الخليفة ولا سيما طلحة والزبير وعائشة[17]. فنستطيع القول إذاً أن أول ثورة أو تمرد ضد السلطة كانت الأحداث التي أدت إلى مقتل عثمان، وأن أول حرب داخلية بين المسلمين أنفسهم كانت حرب طلحة والزبير وعائشة ضد علي(ع) في البصرة، وهي المعروفة بحرب الجمل.

ولكننا ندخل هنا مدخلاً لا يرتضيه بعض المسلمين، أو قل يحاولون غض الطرف عنه ما أمكنهم، وهو مسؤولية الصحابة عن شق عصا المسلمين وإضعافهم. ولكن من يستطيع أن يغمض عينيه عن التاريخ ويلغي دور

طلحة والزبير وعائشة من هذه الفتن والحروب؟ بل لا بد هنا من الوقوف إما إلى جانب عثمان ضد هؤلاء الثلاثة وإما معهم ضده، وإما الوقوف على الحياد، وهو موقف سلبي لا شأن لنا به في معرض بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى حال المسلمين المزري الذي نشهده، وهو موقف إيجابي من جهتنا وبذا فلا يتناسب معه مطلقاً اتخاذ أي موقف سلبي عند مناقشة التفاصيل.

وعلى أية حال لا بد من تحميل بعض الصحابة مسؤولية ما جرى في أحداث عثمان. وإذا ما قبلنا بهذا الموقف الإيجابي فإنه ينفتح أمامنا الطريق للتوغل أكثر في الماضي القريب لتلك الأحداث لنرى إن كان لها مقدمات أم أنها كانت هي المقدمة لما بعدها. وهذا ليس لأجل إرضاء النفس في الحصول على أدلة إضافية على صحة خط أهل البيت(ع) وعقم خط غيرهم، وإنما هي محاولة جادة لمعرفة دور أهل البيت(ع)، كم هو ومتى كان يجب أن يبدأ، بحيث نستطيع أن ندعو بثقة تامة إلى أن مسؤولية الأمة هي في السير وفق خطهم أو خط غيرهم منذ تاريخ معين مهما كان موغلاً بالقدم في تاريخ المسلمين.

تجاوزات الخليفة

إذاً، هل نستطيع أن نلتمس العذر لمن ثار أو تمرد على الخليفة عثمان من الصحابة وغيرهم؟ لا شك في أن التاريخ يسهب بالحديث عن المآخذ التي أخذت على عثمان ومن أجلها ثار الثائرون عليه، والتي كان أهمها ما يلي:

الأول: تعيين أقاربه في المناصب العليا بالرغم من عدم كفاءتهم، بل فسق بعضهم.

الثاني: إعطاء أقاربه وأصدقائه الأموال الكبيرة وإقطاعهم الإقطاعيات الواسعة وحرمان المسلمين منها[18].

الثالث: وضع نفسه في موضع أعلى من المسلمين عندما حمى الحمى حول أراضيه مع ما في ذلك من مخالفة للشرع[19].

الرابع: اضطهاده وإهانته لبعض أعاظم الصحابة لا سيما عمار وابن مسعود وأبي ذر(رض)[20].

والسؤال هنا: تحت أي عنوان يمكننا وضع هذه المخالفات من جانب الخليفة؟ أليست هذه الأعمال من جانبه تخالف الشرع المقدس نصاً وروحاً، أعني تخالف النصوص في وجوب المساواة بين المسلمين ووجوب احترامهم وتوقيرهم وعدم إيذائهم دون حق وعدم المحاباة إلى الدرجة التي تؤدي إلى حرمان عامة المسلمين، وتولية أهل الدين والفقه منهم في أنحاء الوطن الإسلامي لا الفاسقين وضعاف الدين لمجرد كونهم من القربى؟ هذا ناهيك عن المخالفات الأخرى كصلاته تماماً في السفر[21]، وإرجاعه ابن عمه مروان بن الحكم إلى المدينة بعد أن طرده النبي(ص) مع أبيه ورفض أبي بكر وعمر بعد ذلك إعادته من المنفى[22]. هذا في الوقت الذي طرد فيه إلى خارج المدينة الصحابي أبا ذر الذي أجمع المسلمون على عدالته وتقواه[23]. وأما روحاً فلأن من يأتي هذه الأفعال لا بد وأن يكون قد ابتعد وهو يدري أو لا يدري عن روح الشرع بأن لا يأتي ما نهى عنه ليس فقط لأنه منهياً عنه بل لأنه نفسياً

يصبح ضده لأنه مكروه عند الله ورسوله(ص). ألم يقل الله: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ النساء:65. ودقق في كلمة ﴿في أنفسهم﴾ فهذه حقيقة الإيمان، ليس البخوع للأمر خوفاً أو طعماً أو رياءً، وإنما البخوع له حباً ورضى.

الخامس: تولية محمد بن أبي بكر مصر ولكن كتابة كتاب آخر إلى أمير مصر يأمره بقتل محمد عندما يصل مما أثار حنق أهل المدينة.[24]

طريقة استخلاف الخلفاء الأوائل

فإذا ابتعد الخليفة وهو من أعاظم الصحابة وهو لما يزل ترتيبه الثالث بعد وفاة النبي(ص) عن نص الشرع وروحه هلاّ توجّب علينا أن نسأل ما يلي:

أولاً: كيف صار هذا الصحابي خليفة؟

ثانياً: هل كانت أحداثه هي بداية الخلل في المسيرة الإسلامية أم علينا أن نستمر بالعودة إلى ما قبله لنتأكد من ذلك؟

➢ إستخلاف الخليفة الثالث أو شورى الستة

باختصار: أما (أولاً) فإنه صار خليفة في طريقة وضعها الخليفة الذي سبقه عمر بن الخطاب وهي طريقة الشورى والتي انقسم حولها المسلمون قسمين: الأول يرى أنها تطبيق حقيقي ورائع للشورى المنصوص عليها في

القرآن، والثاني يرى أنها طريقة ذكية من جانب الخليفة الثاني لإبعاد علي(ع) عن الخلافة استمراراً لما قررته قريش وأكابرها من دفع علي وأهل البيت(ع) عن الخلافة بعد النبي(ص). وهذا موضوع طويل جداً ولكننا لا بد من أن ندرج مآخذنا على الشورى العمرية كي يحق لنا أن نصل إلى رفض الطريقة التي وصل بها عثمان إلى الخلافة (لا تنس أننا لا زلنا في معرض البحث فيما إذا كان عثمان هو نقطة البدء).

وههنا ندرج باختصار مآخذنا على الشورى العمرية[25]:

1. اختيار ستة فقط من الصحابة والذي علله عمر بأن الرسول(ص) مات وهو راضياً عنهم. وهذا مردود بأن النبي(ص) كان حين موته راضياً عن كثير غيرهم، ولعل في حديثه عن عمار وأبي ذر والمقداد وسلمان وحذيفة وأُبيّ وأبي أيوب وخزيمة وابن مسعود ما يثبت ذلك[26]. فهل كان عمر يقول للمسلمين أن باقي المسلمين لم يكونوا مرضياً عنهم؟ فلماذا يحق ذلك لعمر ولا يحق ذلك للشيعة إذا ما وقفوا موقفاً سلبياً من بعض الصحابة مع أن الشيعة يقرون بأن النبي(ص) كان راضياً عن أكثر بكثير من هؤلاء الستة؟!

هذا ناهيك عن أن عمر عندما دعا هؤلاء الستة ذكرهم بمعايبهم وقال لطلحة بأن النبي(ص) مات وهو ساخط عليه بسبب قول طلحة أن حجاب أمهات المؤمنين لن يغني عنهن شيئاً لأنهم أي الصحابة سيتزوجونهن بعد موته(ص) فنزل تحريم ذلك[27]. والسخط ينقض الرضا وكلاهما أخبرنا بهما نفس الشخص في ذات اليوم والمقام!

أمر آخر هو أننا نرى غياب الأنصار تماماً من الشورى، فهل أمر النبي(ص) بأن تكون الخلافة في قريش دون غيرها أم ماذا؟ وإن كان النبي(ص) قد أمر أن تكون الخلافة في قريش فلماذا ترى قال عمر لهم أنه لو كان سالم مولى حذيفة – وهو غير عربي – حيّاً لولّيته[28]؟

2. حكم عمر على الستة أن يختاروا خليفة من بينهم في ثلاثة أيام وإلا فإن أبا طلحة الأنصاري مأمور بقطع رقابهم جميعاً! وإذا ما اتفق خمسة ورفض السادس أو أربعة ورفض إثنان فإن أبا طلحة يقطع رقاب الرافضين! وأنه، وهو الأعجب، إذا انقسم الستة ثلاثة وثلاثة فإن الأمر بيد الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف[29].

ونسأل هنا : لماذا عبدالرحمن؟ هل لأنه لم يكن طامعاً بالخلافة؟ قال لهم عمر: "أكلكم يطمع في الخلافة من بعدي؟"[30]، أي أن عبدالرحمن كان حاله حال غيره في هذا الشأن. إذاً لماذا عبدالرحمن؟ هل لأنه أورع أو أعظم في الإسلام من غيره؟ ليس هناك مسلم واحد في الدنيا يعتقد بأن عبدالرحمن أفضل من علي(ع) أو عثمان، فلماذا لم يعرف عمر هذه الحقيقة التي يعرفها صغار المسلمين؟

بلى عرفها، ولكنه عرف أيضاً أن عبد الرحمن بن عوف لا يمكن أن يختار أحداً غير عثمان، وأن سعد بن أبي وقاص لا يخالفهما مع ما في نفسه ضد علي(ع) الذي قتل أقاربه الأدنين في حروب الإسلام (وهذه كشفها لنا علي(ع) نفسه بقوله وهو يصف الشورى: ((وصغا الآخر – أي سعد – لضغنه)))[31]. والدليل على كل هذا أن عمر – الذي كان يعرفهم جيداً – تنبأ وأعلن

نبوءته لهم في وجوههم بقوله لعثمان "كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك " (لاحظ قريش وليس المسلمين)[32].

3. تنبأ عمر بأن قريشاً ستختار عثمان، وأن عثمان عندما سيستخلف سيقرب أقاربه، وأن العرب سيغضبون لذلك ويأتون إليه فيقتلوه[33]. ونسأل هنا: ماذا فعل عمر، وقد استقر في عقله هذا التنبؤ، ليمنع حصوله؟ هل عاد فقال لهم ولكن لا تختاروا عثمان منعاً لحصول ذلك؟ كلا، إستمر أمره بالشورى وتفاصيلها كما هو وجرى ما جرى ليطابق تماماً نبوءة عمر. وليس هناك مجال للدفاع عن الخليفة الثاني في ذلك لأنه أمر بأمر تنبأ هو نفسه بعواقبه الوخيمة. ترى كم هي مسؤوليته عما جرى بعدها من أحداث وإلى يومنا هذا؟

بقي لنا أن نسأل، لكي لا نظلم الرجل، فيما إذا كانت الشورى أمراً لا بد من ترتيبه عملاً بأوامر الله ورسوله(ص). بعبارة أخرى: هل كانت الشورى تطبيقاً للشرع، أو على الأقل تطبيقاً لشورى سبقتها في تاريخ الإسلام والذي لم يكن هناك فيه سوى بيعة عمر نفسه وبيعة أبي بكر؟

بنظرة سريعة إلى التاريخ نجد أنه لا عمر جاء ببيعة شورى ولا أبو بكر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن النبي(ص) مات ولم ينبس ببنت شفة عن الشورى وتفاصيلها مما يقطع أنها ليست طريقة اختيار الحاكم وأن ما نص عليه الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى:38[34] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ آل عمران:159 إنما تخص طريقة بحث تفاصيل المسيرة الإسلامية أو تطييباً للقلوب كما قال البعض[35] وليست طريقة

للحكم، والدليل قوله بعدها ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ أي مشاورة النبي(ص) لأصحابه ثم هو يعزم على رأي بعد المشاورة ويقرر ويأمر وينفذ. وكل هذا لا علاقة له مطلقاً ببيعة الخليفة.

(وهنا لا بد أن نطلب من القارئ أن ينتظر للإجابة على التساؤل الذي لا بد منه وهو: إذا كان الخليفة لا يأتي عن طريق الشورى فكيف يأتي، في القرون الأولى وبعدها ولا سيما في وقتنا الحالي؟ ولكن يكفي أن نقول أن الشورى بالانتخاب ربما تكون ملزمة في وقتنا الحالي لعدم وجود المنصوص عليه من الله تعالى، وأن هناك رجالاً نص عليهم الشرع في مفتتح التاريخ الإسلامي، وهو لبّ بحثنا هذا.)

➢ إستخلاف الخليفة الثاني أو نص الأول على الثاني

لننظر إذاً كيف بويع عمر للخلافة. لم يكن هناك شورى ولا تشاور ولا مباحثات، بل كان هناك أمر واحد صادر من الخليفة الأول أبي بكر كتبه عثمان بن عفان وأبو بكر في حال الإحتضار، بتولية عمر بعده[36]. فهل كان ذلك شرعياً؟

الجواب هو بصيغة سؤال نطرحه على المسلمين الذين قبلوا بالبيعتين: إذا كانت الشورى العمرية هي الشرع فإن نص أبي بكر على عمر قبلها باطل، وإذا كان النص هو الطريقة الشرعية فإن شورى عمر باطلة، وفي الحالتين أليس أحد الرجلين أو كلاهما مسؤول عن وصول عثمان إلى الخلافة وما جرى بعدها من أحداث؟

ولا نريد أن نذكر هنا رأي الصحابة الأولين في هذه البيعة ولكن نكفي أن نذكر ما قاله ذلك الصحابي لعمر عندما خرج الأخير وبيده كتاب الاستخلاف زاعماً أنه لا يعرف ما فيه: "ولكني والله أدري ما فيه – أي الكتاب –: أمّرته عام أول وأمّرك العام!" أي أعنته في بيعته هو بعد وفاة النبي(ص) وهو ينفذ لك ما اتفقتما عليه، أو يرد لك الجميل على الأقل، اليوم.[37]

إذاً نحن أمام اتهام صريح بأن الاستخلاف لم يراقب فيه الله ورسوله(ص) ومصلحة المسلمين. إذاً يتوجب علينا أن نعود إلى بيعة أبي بكر لنتبين حقيقتها، فهي محل اتهام بعض الصحابة من جهة، وهي ليست تشبه الشورى العمرية ولا هي نص من النبي(ص) من جهة أخرى؛ فماذا كانت؟

➢ استخلاف الخليفة الأول أو بيعة السقيفة

هذه كذلك موضوع طويل جداً كتبت فيه الكتب والبحوث وسطرت وقائعها صفحات كثيرة من صحف التاريخ. ولعل شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد تضمن تفاصيلها بما يعطي صورة واضحة عنها وما تلاها كالشورى العمرية وأحداث مقتل عثمان وبيعة علي(ع) وحروبه (وإن شئت فراجع كتاب "السقيفة" للشيخ المظفر أو كتاب "السقيفة والخلافة" للأستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود ففيهما تفصيل للموضوع بمنهج بحث حديث[38]).

ولكننا نختصر فنقول بأن بيعة أبي بكر لم تكن نصاً من النبي(ص) وهذا معلوم[39]. كما لم يوافق عليها المسلمون جميعهم: فبنو هاشم جميعهم رفضوا،

ومن والاهم من الصحابة كذلك[40]؛ وسعد بن عبادة سيد الخزرج من الأنصار رفض وبقي على رفضه إلى أن قتل غيلة في بلاد الشام أيام عمر[41]؛ وبنو أمية رفضوا وجاء أبو سفيان إلى علي(ع) والعباس عم النبي(ص) وهو يحرضهما على الثورة واعداً بالمدد والنصرة ثم سكت ورضي (وسنعود إلى ذلك بعد قليل). وبالجملة كانت بيعة عاجلة متعجلة شتم المسلمون فيها بعضهم البعض واتهم عمر سعد الخزرجي بالنفاق وحرّض على قتله[42].

ثم ذهب عمر وخالد بن الوليد وجماعة إلى دار فاطمة الزهراء(ع) حيث كان علي(ع) ومن معه فيه، وجاؤوا بالحطب وهم يهددون من في الدار بالتحريق. وعندما خرج الزبير لهم بسيفه هوجم وأخذ السيف وكسره عمر، ثم اقتيد الزبير وعلي(ع) لبيعة أبي بكر مكرهين، وهدد عمر علياً(ع) بالقتل إن لم يبايع وطلب أبو بكر أن يأمر فيه بأمره: البيعة أو القتل.. إلى آخرها من أحداث مؤسفة فتحت الباب أمام الاستهانة بأهل البيت(ع) وبمنزلتهم[43]. بل حتى الذين وافقوا إنما كانت بيعتهم تؤخذ منهم شاؤوا أم أبوا، فقد ذكر المؤرخون أن موكب أبي بكر كان يطوف في سكك المدينة فإذا ما مرّ بمسلم أخذت يده وضربت على يد أبي بكر ليبايعه رغم أنفه![44]

وقد اختصر لنا بيعة أبي بكر، المشهورة ببيعة السقيفة، عمر بن الخطاب نفسه والذي كان قطبها وبطلها الأول بقوله: "كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه!" أو "إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن اللّه وقى شرها" ثم حكم

هو على فاعلها بالقول:" من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تَغِرّة أن يُقتلا ".[45]

ولكن هل وقى الله المسلمين شرّها حقاً؟ أم أن ما جرّته من أحداث بعدها: بيعة عمر، فعثمان، فمقتل عثمان، فبيعة علي(ع) التي رفضها البعض، فحرب الجمل وهي أول حرب داخلية بين المسلمين، فتمرد معاوية، فقيام الدولة الأموية، فما حدث بعدها إلى يومنا هذا، دليل على أن شرّها عمّ المسلمين في تاريخهم كله، بل وتاريخ غيرهم أيضاً، وأن شررها ظل متطايراً طول القرون.

- **دور أبي سفيان ودور أبي عبيدة الجراح**

تبقى لنا وقفتان: الأولى مع موقف الشيخين من أبي سفيان والثانية مع دور أبي عبيدة الجراح.

أما ثورة أبي سفيان على بيعة أبي بكر وتحريضه علياً(ع) والعباس ثم سكوته وموادعته أبي بكر[46] فإن المؤرخين ذكروا أن عمر قال لأبي بكر بأنه من الأفضل التخلص من خطر أبي سفيان (الذي كان احتمال قيام تحالف أموي هاشمي يستطيع أن ينقض خلافة أبي بكر) وذلك بإعطائه شيئاً من أموال الفيء واستعمال أولاده في السلطة. ويبدو أن ذلك هو الذي حصل لأن أبا سفيان وادع وسكت، ثم بعد أن فتحت الشام عيّن ابنه يزيد بن أبي سفيان والياً عليهم. واستمر العقد بين الطرفين بعد موت يزيد حيث عيّن معاوية أخوه خلفاً له في الشام لأن أبا سفيان عاش إلى ما بعد وفاة

عمر وبيعة عثمان[47]. وكان نتيجة ذلك تمكن معاوية تماماً من الشام حتى صار طامعاً بالخلافة بعد أن كانت بالنسبة لطليق مثله في عداد المستحيلات.

وينبغي أن نذكر هنا أن عمر رشح معاوية بعد ذلك للخلافة من طرف خفي، عندما هدد أهل الشورى بأنهم إن اختلفوا فإن معاوية بن أبي سفيان سيغلبهم على الخلافة[48].

وهكذا نرى أن عمر ليس فقط ابتدع طريقة الشورى الغريبة لكنه أيضاً أسس حالة تنذر بالخطر الأكيد على المسلمين بترشيح هذا الطليق الباغي[49] الذي لا بد وأن عمر يعرفه أفضل من معرفتنا به.

وكان من نتائج إطلاق يد أولاد أبي سفيان، عدو الله ورسوله(ص)، في الشام أن أهل الشام صاروا يجهلون من الإسلام حقيقته وروحه وشرائعه الصحيحة ولا يعرفون إلا ما يصلهم عن طريق آل أبي سفيان. بل إن شيوخ الشام عندما سقطت دولتهم وقامت دولة بني العباس وجيء بهم إلى أبي العباس السفاح أقسموا بأنهم لا يعرفون قربى لمحمد(ص) سوى بني أمية فهم قرباه وهم أهل بيته[50]؛ وقس على هذه ما سواها.

أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد كان ثالث أبي بكر وعمر في بيعة الأول في السقيفة، فلماذا لم يكن له نصيب من الخلافة إذاً؟

في الحقيقة لقد كان له نصيب وافر من الخلافة كما هو واضح من تصريح عمر عندما أعلن شورى الستة في مرض موته بقوله: "لو كان أبو

عبيدة حياً لولّيته". ويبدو أنه التفت إلى غرابة ذلك بوجود غيره من أعاظم الصحابة السابقين له في كل شيء فأردف معللاً: "ولو سألني ربي لقلت أن نبيك(ص) قال عنه أنه أمين هذه الأمة!"[51]

وهكذا فلو لم يكن الموت بطاعون عمواس في الشام[52] قد عاجل أبا عبيدة قبل وفاة عمر لكان للمسلمين اليوم خليفة ثالث غير عثمان وهو أبو عبيدة، ولكان أكثر المسلمين اعتبروا أن ثالث أفضل صحابي هو أبو عبيدة وليس عثمان لأن الأفضلية صارت عندهم ليس تفضيل الله ورسوله(ص) بل تفضيل السياسة والغلبة.

➢ تجميع الخيوط وشهادة المستفيدين

إذاً تكاد الصورة تكتمل: إتفاق مسبق بين الخليفتين الأولين مع أبي عبيدة أو سالم وربما معاذ بن جبل (لأن عمر ذكره عندما ذكر أبي عبيدة وأنه كان سيولّيه لو كان حيّاً وذلك لأنه "يأتي إمام العلماء يوم القيامة" على ما قال[53])؛ وأنهم كانوا سيتداولون الخلافة فيما بينهم لولا أن الأجل تدخل فقضى على اثنين قبل أن يحين موعدهما[54].

وثم كان ما كان من شأن الخلافة، إلى أن قام الخلاف بين علي(ع) ومعاوية وكتب محمد بن أبي بكر، وكان شيعة لعلي(ع)، إلى معاوية وأجابه معاوية ذلك الجواب الشهير الذي وضع النقاط على الحروف، حيث قال جواباً على تقريع محمد له (بأنه نازع علياً(ع) وهو أحق بالأمر منه بل لا تجوز المقارنة بينهما ويقول: "كيف – يا لك الويل – تعدل

نفسك بعليّ" الخ)، قال معاوية في جوابه (نورده مختصراً): "إنا كنا في حياة نبينا(ص) نرى حق ابن أبي طالب لازماً علينا، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه، فإن كان ما فعله أبوك حقاً فنحن سرنا على منواله، وإن كان باطلاً فأبوك أسّسه".. ثم ختم بقوله: "فَعِب أباك بما شئت أو فَدَعْ والسلام".[55]

هذا بعد أن افتتح معاوية جوابه قائلاً: "من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر"، مع أن محمداً لم يذكر أباه مطلقاً. وهذا يدل على أن معاوية نفسه يعرف ويصرح بأنه ما كان سيتجرأ على منازعة علي(ع) لولا من تجرأ قبله لا سيما أبو بكر وعمر. كما أن معاوية وضع الأساس لهذا المنهج الذي نعيشه اليوم وهو أن مجرد ذكر حق أهل البيت(ع) يعدّ عند الخصوم زراية بالصحابة الكبار وبالتالي صار التصريح بالحق خطأ بل فسقاً وكفراً عند بعضهم.

وبعد هذا بسنين، عندما كتب عبد الله بن عمر إلى يزيد اللعين بعد قتل الحسين(ع) يوبّخه بطريقة غير مباشرة ويقول: "أما بعد، فقد عظمت الرزية وجلّت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم، ولا يوم كيوم قتل الحسين"، كتب إليه اللعين رداً يقول: "يا أحمق، فإنا جئنا إلى بيوت مجددة، وفرش ممهدة، ووسائد منضدّة، فقاتلنا عنها؛ فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا، وإن كان الحق لغيرنا فأبوك أول من سنّ هذا واستأثر بالحق على أهله[56]".

خلاصة البحث التاريخي في استخلاف الأوائل

نخلص من كل ذلك إلى أن المسؤولية التاريخية لا تقع برمتها على عاتق العثمانيين أو العباسيين أو حتى الأمويين، وإنما تقع على من سبقهم ممن أسّس الأساس الذي قامت عليه الممالك المختلفة والمتناحرة والتي لا يتمتع حكامها من ملوك وأمراء وسلاطين وولاة بالقدر الكافي من مراقبة حدود الله. بل أن القسط الأكبر يقع على الأولين، لا سيما وأن النبي(ص) قال: ‹‹من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة››، وفي رواية ‹‹ومن سنّ في الإسلام سُنّة سيئة فعُمِلَ بها بعده كُتِبَ عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء›› [57].

وقد خرجت من فيه أمير المؤمنين(ع) كلمات عديدة في هذا المعنى، مثل قوله لمن جاء يخطب ابنته ولم يكن أهلاً لها: ‹‹أغرّك ابن أبي قحافة؟›› يعني هل أن ما فعله أبو بكر معي غرّك فجعلك تنظر إليّ وإلى ابنتي بمنزلة أقل من منزلتنا الحقيقية[58].

وقال لعبد الله بن عمر عندما اعترض عليه بعد بيعة عثمان: «أسكت، ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديماً وحديثاً ما نازعني ابن عفان ولا ابن عوف» يعني عمر[59]، وكلمة قديماً تعني بيعة أبي بكر، وحديثاً تعني الشورى، ففي الأولى شارك عمر في التخطيط والتنفيذ وفي الثانية كان هو المخطط ووضع لتنفيذها ضوابط ليس أقل منها سيف أبي طلحة الأنصاري مسلطاً على رقاب ستة قال بأن النبي(ص) مات وهو راضياً عنهم!

بل أن بعض ما قاله الإمام(ع) اتبع السرد التاريخي حيث قال: «كنتُ كالنجم لا يُطاول في حياة رسول الله(ص)، ثم غض الدهر مني فقرن بي فلان وفلان – يعني أبا بكر وعمر –، ثم بخمسة أمثلهم عثمان – يعني الشورى – ، فقلت: واذَفَراه! ثم لم يرض الدهر لي بذلك حتى أرذلني فجعلني نظيراً لابن هند وابن النابغة – يعني معاوية وعمرو بن العاص – ...»[60].

ولله درّ القائل:

وما الخبيثانِ ابنُ هندٍ وابنُهُ وإنْ طغى أمرُهُما، بعدُ، وَجَلْ
بمبدعَينِ للّذي جاءا بهِ لكنَّما تَقَفَّيا تلكَ السُّبُلْ

كلمة لمن يرفض هذا التحليل لتلك الأحداث

بما أن جمهور أهل السنة قد نشأوا على أن العصور الإسلامية الأولى كانت عصوراً ذهبية، فإن شابها شيء فلا يعد شيئاً مقابل الأمور الإيجابية؛ فإذا جئت إلى العصر الراشدي تجدهم يعدونه عصراً المسلمون فيه هم بالملائكة أشبه! وعليه، فلا يمكنهم تقبل مجرد نقد لذلك العهد، دع عنك توجيه أصابع الاتهام إليه بأنه العهد الذي أسس لما بعده. لذا، لا بد من أن ندعم التحليل المار بنصوص مقدسة لا مفر – لنا ولهم كمسلمين – من القبول بها وبدلالاتها. ولأن المقام لا يسع سوى للإشارة، فإني سآتي بآيتين من الكتاب العزيز مما يثبت دون حاجة إلى مزيد شرح أن القاعدة الأساسية لذلك العصر، أي النفوس، لم تكن معصومة عن أن تسقط أمام

اختبار التنافس على الدنيا، وبحديثين من الصحيح الذي يؤمن به أهل السنة ما يثبت أن الفتن كانت قد بدأت تتجمع والنبي(ص) ما يزال على قيد الحياة.

أما القرآن فقد جاءت فيه آيات تكشف عن نفوس البعض، في حالتي السلم والحرب. أما في حالة الحرب فدونك آيات غزوة الأحزاب/الخندق والتي وصل فيها البعض من المسلمين، المؤمنين وليس المنافقين، إلى درجات متدنية جداً من الإيمان. قال تعالى:

﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا)) الأحزاب:10-12، ((قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ الأحزاب:18-20.

فأمعن النظر، تجد أن هناك فريقاً هم "الذين في قلوبهم مرض"، فهم غير المنافقين بدليل التفريق بينهم وبين المنافقين بذكر منفصل – هؤلاء أعلنوا أن أضمروا الشك بوعد الله ورسوله(ص) لهم بالنصر. بل إن المؤمنين

أنفسهم صار الظن بوعد الله يتسرب إلى قلوبهم، فما بالك بالذين في قلوبهم مرض.

من المسلمين من كانوا "معوقين" أي يثبطون المؤمنين، ولكن في العلن لا بد أن يدعوا أنهم يريدون القتال ولكنهم لا يقومون بذلك عندما تشتعل الحرب. يصفهم بأن نفوسهم شحيحة على المؤمنين، يتكلمون ضدهم بألسنة شديدة، ثم يقول الحق تعالى أنهم لم يؤمنوا وأن الله سيحبط أعمالهم الصالحة التي كانت مع الجماعة المؤمنة (مما اضطروا إليه)). هؤلاء يتمنون لو أنهم حين يشتد الأمر عليهم من الأحزاب المهاجمين أنهم في سلام البادية لا معكم. فهذا وقت الحرب (وإن شئت فراجع آيات غزوة حنين، بل وغزوة بدر وكيف كان فريق من المؤمنين كارهين للخروج، أو غزوة أحد وما حصل منهم من الفرار الذي لم ينته على الرغم من مناداة النبي(ص) لهم للعودة).

وأما في حالة السلم، فالله تعالى وصف فعلهم في إحدى أيام الجمع حيث تركوا النبي(ص) يخطب على المنبر وخرجوا من المسجد من أجل قافلة التجارة التي سمعوا بوصولها. قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الجمعة:11. يقول المفسرون أن الجميع خرجوا إلا إثنا عشر رجلاً! ولا حاجة للتعليق.

وأما من حديث النبي(ص)، فأذكر حديثين يتعلقان بما سيحصل بعد وفاته مباشرة. الأول هو حديث أبي مُوَيْهِبَة، وهو صحابي صادف النبي(ص) خارجاً

لوحده ليلاً فسأله عن الوجهة فأخبره(ص) أنه أمر أن يستغفر لأهل البقيع ودعاه لمصاحبته ففعل. دخل النبي(ص) وأخذ بالاستغفار لموتى البقيع، ثم قال(ص):

((السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى)) مسند أحمد بن حنبل، حديث 88838. أو بلفظ مشابه: ((ليهنيكم ما أنتم فيه مما فيه الناس، أتت الفتن كقطع الليل يركب بعضها بعضاً الآخرة أشد من الأولى، فليهنيكم ما أنتم فيه)) مسند أحمد بن حنبل، مسند المكيين، ج3 حديث 15566. هذا الحديث رواه الدارمي في سننه وصاحب أسد الغابة والطبراني في معجمه وخليفة بن خياط في مسنده والطبري في التاريخ وغيرهم.

النبي(ص) يعلن أن الناس أصبحوا في حالة لا يحسدون عليها، ويهنئ موتى البقيع بما هم فيه، وبما نجاهم الله منه. ولكن هذا ليس لأن أحوالهم صارت ليست كما يرام وكفى، بل لأن هذه الأحوال مقدمة للفتن التي سيغرقون فيها. وبما أنه(ص) يقول بأنهم أصبحوا في ذلك الحين، وهو(ص) على قيد الحياة، في تلك الحالة السيئة، وأن الفتن أقبلت، إذاً سيفهم أي عربي يعلم من اللغة العربية مبادئها البسيطة أن هؤلاء سيقعون في الفتن لأنهم صاروا جاهزين – بحالتهم السيئة – للوقوع فيها؛ فإذا ما وجدناهم اختلفوا أشد الاختلاف في بيعة أبي بكر، فإننا لا يمكن أن نفهم إلا بأن بيعة أبي بكر كانت فاتحة الفتن.

ومما يثبت ما نذهب إليه من أن مآسينا الحاضرة هي نتاج تلك الفتنة الأولى أن النبي(ص) يقول بكل وضوح أن الفتن ((يتبع بعضها بعضاً))، بل وأشد منه توكيداً لذلك ((يركب بعضها بعضاً))، فكأن الثانية ركبت نتائج الأولى، والثالثة نتائج الثانية، وهكذا.

حديث آخر أن النبي(ص) قال للصحابة: ((هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر)) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث 2885. هذا الحديث يحاول البعض أن يفسره بمعارك الجمل وصفين ومقتل عثمان ومقتل الحسين(ع)، مع أن لا دليل على أنه لا يشمل ما جرى قبل ذلك، لا سيما بضميمة حديث أبي مويهبة الآنف، وبضميمة أوضاعهم المضطربة التي حكى القرآن عنها. وحتى إن قبلنا بتفسيرهم، فإننا نسأل عن دور الصحابة المشاركين في الجمل وصفين ومقتل عثمان وقتل الحسين(ع): أليس لهم دور فيما جرى بعد ذلك، وذلك قاد إلى ما بعده وحتى يومنا هذا؟

تذكير بالهدف

أكرر موضحاً أن ما أريد أن أقوله هنا ليس سرداً للتاريخ لمجرد السرد واتهام فلان أو علاّن، وإنما للتوصل إلى الطريق الصحيح لمعالجة الواقع المرّ والذي لا يمكن أن يتم التوصل إليه دون التوصل إلى أسباب حصوله، وهذا من مبادئ التناول المنطقي للمشاكل. أما العواطف والأحكام

المسبقة التي تمنع من الرؤية الصحيحة فلا شأن لنا بها. وهذا الكتاب العزيز يمدح ثم يعود فيذم ثم يمدح وهكذا، لكل حادث حديث ولكل موقف حقه من المدح أو الذم دون محاباة ودون أحكام مسبقة. وهكذا فإنه من الطبيعي أن تنحدر الدولة الأموية في الأندلس لأنها من سنخ الدولة الأموية في الشام، فكان طبيعياً أن يتناحر ملوكها بعد أن تنقسم إلى دويلات، ثم يتحالف بعضهم مع الأسبان ضد البعض الآخر ثم لتسقط الدويلات الواحدة بعد الأخرى حتى يعود الأسبان ولا يترك أثر مطلقاً للمسلمين حيث لم يبق منهم أحد. بل دخل الأسبان إلى المغرب فحوصر المسلمون في البحر الأبيض المتوسط ولم يستطيعوا الخروج منه، وعندما بدأت الفتوحات الأوروبية للأمريكتين كان الفاتحون مسيحيين في حين كان يمكن أن يكونوا مسلمين، وانقلبت الموازين وتغيّر وجه التاريخ عما كان يمكن أن يكون عليه لو أن الخلافة جرت مقاديرها بوجهة أخرى.

ولكن ما هي الوجهة الأخرى، بل هل هناك وجهة أخرى؟

نحن نعتقد بأن الوجهة الأخرى هي طريق أهل البيت(ع)، وأن هذا الاعتقاد ليس وليد العاطفة أو الهوى، وإنما هو نتيجة لاتّباع تام لله تعالى ورسوله(ص) حيث جاءت الأوامر الواضحة بإتباع الأئمة من أهل البيت(ع)، ليس في إطار مبهم كي يكون الاختيار عشوائياً وإنما في إطار واضح محدد يشخص القيادة ليس في جيل واحد بل عدة أجيال، ضماناً للمسيرة من أن تتعثّر.

[8] راجع "الكامل في التاريخ" لابن الأثير ج4 و"تاريخ الرسل والملوك" للطبري ج6 و"بحار الأنوار" للمجلسي ج45 للتعرف على تفاصيل هذه الثورات (لاسيما تاريخ المختار لأن أكثر الشيعة على مدحه وبعضهم يشكك بنواياه بينما المؤرخون السنة مختلفون فيه، وطبعاً أصحاب الصوت العالي هذه الأيام يلصقون كل صفة سيئة به، في حين يترحمون ويترضون على عبد الله بن الزبير مع أنه قاتل أئمتهم الأمويين واستقل عن دولتهم مع أنهم يدافعون عنهم بنفس الوقت وبذات العصبية!)

[9] راجع واقعة الطف في كتب التاريخ أو في الكتب المؤلفة فيه مثل كتاب "مقتل الحسين" لعبد الرزاق الموسوي المقرم ص6 دار الكتاب الإسلامي – بيروت لبنان ط1979/5.

[10] "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة الدينوري ج2 ص11 و12. وتكرر الشيء ذاته في خلافة عبد الملك بن مروان بقيادة الحجاج الثقفي.

[11] يعتقد أهل السنة بصحة حديث (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) لأنه مروي في الصحيحين وغيرهما، ولعل منه الثناء على التابعين ثم تابعي التابعين لأنهم الذين يلونهم والذين يلونهم. أما الشيعة فلا يقرون بهذا على نحو الإطلاق، كما لا يقرون بهذا لكل شخص عاش في هذه الأجيال الثلاثة، فمؤكد عندهم أن هناك من المسلمين في القرون المتأخرة من هم أعلم وأتقى من الكثيرين ممن عاش في تلك القرون الثلاثة الأولى، لا سيما الذين دخلوا في الفتن وأولغوا في الدماء المحترمة وخالفوا الشريعة. نعم، إذا كانت الخيرية لوجود أشخاص معينين، فإنها لوجود النبي(ص) وأهل بيته(ع) والصلحاء من الصحابة والتابعين(رض).

[12] راجع "صلح الحسن" لراضي آل ياسين، منشورات ناصر حسني-بيروت لبنان-ط3/ 1978، ففيه تفصيل وتحليل لهذا الموضوع الذي تجده مشوشاً عند المسلمين جميعاً بحيث يتصور غالبيتهم أن الإمام الحسن(ع) إنما صالح رغبة في السلامة، أو أنه كان يريد حقن دماء أهل العراق وأهل الشام بما يبدو وكأنهم في الحق سواء، في الوقت الذي كان(ع) مجداً للقتال إلا أن جيشه آثر الحفاظ على البقية بعد أن عرض(ع) ذلك عليهم إثر وصول عرض معاوية بالصلح كائناً ما كانت الشروط، فشرط عليه الحسن(ع) ما يحفظ الدين وشيعة علي(ع) (ولم يف بها معاوية بالطبع لأنه – كما وصفه الإمام علي(ع) ((يغدر ويفجر))).

[13] ((الإمامة والسياسة)) ج1 ص74

[14] نفسه ص47

[15] نفسه ص55-73

[16] ((الإمامة والسياسة)) ج1 ص127-128

[17] نفسه ص55-73

[18] "الملل والنحل" للشهرستاني ج1 ص32، و"أنساب الأشراف" للبلاذري ج6 ص134، و"العقد الفريد" للأندلسي ج4 ص270 و"تاريخ دمشق" لابن عساكر ج39 ص416.

[19] "الإمامة والسياسة" ج1 ص35

[20] نفسه

[21] "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" لابن عبد البر، حرف الصاد، صالح بن كيسان، ص302-305، والتي من ضمن ما فيها اعتذار عثمان أنه إنما أتم الصلاة في منى لأنه كان قد تزوج في مكة فتعد وطناً له كما سمع ذلك من النبي(ص)، إلا أن صلاته قصراً في أول خلافته ثم تغييرها إلى التمام يرد دعواه اللهم إلا إذا كان ما قصدوه من صلاته قصراً في أول خلافته خارج المواقيت ولم يجمعوا ذلك إلى القضية؛ والله العالم.

[22] "الملل والنحل" للشهرستاني ج1 ص32

[23] المصادر المارة أعلاه. وبهذا يكون الخليفة عثمان قد أرجع طريد رسول الله(ص) وطرد صاحب رسول الله(ص) الذي كان(ص) يحبه ويقربه ومدحه أشد المدح.

[24] "تاريخ الخلفاء" للسيوطي، والمصادر المارة أعلاه أيضاً مثل "تاريخ دمشق" ج39 ص416.

[25] الإطلاع على تفاصيل الشورى العمرية راجع "الإمامة والسياسة" ج1 ص28 و"شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد شرح الخطبة 3 من خطب الإمام علي(ع) المعروفة بالشقشقية، و"تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج5 ص33، و"الكامل" لابن الأثير ج3 ص34.

[26] كحديث النبي(ص):((إن الجنة لتشتاق إلى أربعة علي بن أبي طالب ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، والمقداد بن الأسود)) "المعجم الكبير" للطبراني حديث 5923، أو حديثه(ص): ((إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان)) "سنن الترمذي" مناقب سلمان حديث 3732.

[27] قال له عمر: "ولقد مات رسول اللّه ساخطاً عليك" مذكراً له أنه عندما نزلت آية الحجاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ

فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ الأحزاب:53 وأمر اللّه تعالى نساء النبي(ص) أن يحتجبن عن الرجال قال طلحة: "ما الذي يعنيه حجابهن اليوم؟ و سيموت غداً فننكحهن!" وفي رواية قال: "أينكح محمد نساءنا ولا ننكح نسائه؟ واللّه لو قد مات لأجلبنا على نسائه بالسهام!" وفي رواية أنه قال: "لئن أمات اللّه محمداً لنركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا!" (بل نُسِبَ إليه القول الصريح فيمن قصد، بقولهم أن رجلاً قال: " لو مات محمد تزوجت عائشة" ولكن ابن عباس أوضح بأنه طلحة بن عبيد اللّه) فأنزل اللّه تمام الآية 53 من سورة الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

[28] راجع "الإمامة والسياسة" ج1 ص28 و"شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد شرح الخطبة 3 من خطب الإمام علي(ع) المعروفة بالشقشقية، و"تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج5 ص33، و"الكامل" لابن الأثير ج3 ص34.

[29] المصادر نفسها

[30] المصادر نفسها

[31] أي أن ما في صدر سعد بن أبي وقاص على علي(ع) الذي قتل أقاربه في حروب النبي(ص) سيجعله يميل إلى جانب عثمان في التصويت. راجع "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد شرح الخطبة 3 من خطب الإمام علي(ع) المعروفة بالشقشقية.

[32] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد، ج1 شرح الشقشقية.

[33] قال له عمر: "هيها إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً! والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن!" ثم أخذ بناصيته فقال: "فإذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن" نفس المصدر.

[34] وهي في سياق مدح أخلاقيات المؤمنين في قوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ الشورى: 36-38.

[35] تفسير الطبري ج4 ص152. واللطيف أنك ترى البعض يناقش من قال بهذا الرأي وأن النبي(ص) لم يكن ملزماً بمشاورة أصحابه ويرده بكل حسم في الوقت الذي يتقبل بكل رحابة صدر عدم مشاورة الخليفة أبي بكر مثلاً في قتال من سموهم بالمرتدين متذرعين بأن أبا بكر رد اعتراض الصحابة بأن عنده الحكم من كتاب الله وسنة النبي(ص) – أي أن الخليفة كان عنده ذلك ولكن النبي(ص) لم يكن عنده الحكم من الكتاب الذي نزل عليه ولا من سنته(ص) هو! فانظر إلى مناضلتهم من أجل إثبات الشورى ليتوصلوا إلى دفع النص عن علي وأولاده(ع) (راجع الشورى والديمقراطية لمحمد بن صالح العلي الذي أورد أقوال من لم يوجبوا الشورى على النبي(ص) وردها ثم أقوال من أخذوا على أبي بكر عدم التشاور وردها).

[36] "الإمامة والسياسة" ج1 ص24

[37] نفسه ج1 ص38

[38] «السقيفة" للشيخ محمد رضا المظفر، دار الهادي، بيروت، ط3/ 1982؛ و"السقيفة الخلافة" للأستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود، مكتبة غريب، شارع صدقي، النجالة، القاهرة، مصر

[39] نعم، عند إخواننا أهل السنة رواية أن النبي(ص) قال في مرض موته: (مروا أبا بكر بالصلاة) ورواية أنه(ص) أجاب من سأله عمن يأتي بعد النبي(ص) فقال(ص): (إئت أبا بكر...) والروايتان لا يعترف بهما أهل البيت(ع) وشيعتهم. وعند أهل السنة فإن الرواية الثانية ضعيفة موضوعة. أما الأولى فيعارضها رواية أن النبي(ص) تحامل على نفسه رغم شدة الوجع والتعب وخرج ليصلي بدلاً من أبي بكر لمّا رآه يصلي بالناس مما يقطع بأنه(ص) لم يأمر أبا بكر بالصلاة. كما أنها لا تعني شيئاً حتى وإن كان هو الذي أمر لأن إمامة .... وأخيراً فإن علياً(ع) عندما جاءه رسول أبي بكر ليسأله القدوم قائلاً: يدعوك خليفة رسول الله، فقال علي(ع): ‹‹لسريع ما كذبتم على رسول الله›› وفي المرة الثانية: ‹‹سبحان الله لقد ادعى عن رسول الله...›› وهذه كلها اتهامات بالكذب والإفك والتوثب على حق غيره. وقول علي(ع) بهذا الإصرار والثقة لا يمكن أن يكون إلا بوجود النص عليه كما لا يخفى. راجع "الإمامة والسياسة" ج1 ص19.

[40] نفسه ج1 ص17 وما بعدها

[41] نفسه

[42] نفسه ص15 وما بعدها

[43] نفسه ص 18 وما بعدها

[44] "السقيفة" لعبد العزيز الجوهري ص48

[45] ذكره معظم المؤرخين كالسيوطي في "تاريخ الخلفاء وابن كثير في "البداية والنهاية" وابن هشام في "السيرة النبوية". كما ذكر الصيغة الثانية البخاري في "الجامع الصحيح" ج8 ص210 باب الحدود حديث 6830، والإمام أحمد بن حنبل في "المسند" ج1 ص323 حديث 391.

[46] "تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج2 ص449 وغيره

[47] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج2 ص44

[48] راجع "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج1 ص62 رواية عن ابن عباس أنه سمع عمر يقول لأهل الشورى: "إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبى سفيان" وكان معاوية والي عمر على الشام.

[49] كونه طليقاً فلأنه كان من المكيين الذين منّ النبي(ص) عليهم يوم الفتح بقوله(ص): ‹‹إذهبوا فأنتم الطلقاء›› ولا تصح الخلافة لطليق، كما قال له علي(ع). أما كونه من البغاة فلقول النبي(ص) المشهور: ‹‹عمار تقتله الفئة الباغية›› وعمار قتله جيش معاوية في صفين. راجع "الإمامة والسياسة" ج1 ص5.

[50] راجع "شرح النهج" لابن أبي الحديد ج7 ص159، و "النزاع والتخاصم بين أمية وهاشم" للمقريزي ص28، وشرح النهج للمعتزلي ج7 ص159، و "مروج الذهب" للمسعودي ج3 ص33.

[51] "الإمامة والسياسة" ج1 ص28

[52] "البداية والنهاية" لابن كثير ج7، وجميع من ذكر المتوفين من الصحابة بطاعون عمواس

[53] "الإمامة والسياسة" ج1 ص28

[54] وإلا فما معنى أن يقول عمر لعلي يوم الشورى بعد أن عدد مناقب الخمسة الآخرين ‹‹وإنك لأحرى القوم إن ولّيتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم›› ثم لا يولّه نصاً كما فعل أبو بكر معه هو، لولا أن يكون هناك اتفاق مسبق على إبعاد علي(ع). بل أن هناك رواية تقول أن البعض تساءل بعد قول عمر هذا: "لِمَ لا تُولِّه إذاً؟" فأجاب: "ليس إلى ذلك سبيل" – أي أن الأتفاق القرشي أقوى من أي اعتبار آخر.

[55] نرى أن بعض المؤرخين لم يشأ أن يذكر الرسالة وجوابها لأن فيها تهمة صريحة من معاوية الصحابي موجهة إلي أبي بكر وعمر في شأن علي(ع) وذلك "لأن فيها ما لا تحتمله العامة"فبعد

أن ذكر الرسالة وجوابها نصر بن مزاحم في كتابه "صفين" ص118، فإن الطبري أكد وجودهما ولكنه لم يرويهما لأن "العامة" لا تتقبل ما فيهما، وفعل نفس الشيء ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" ج3 ص108، مبرراً السبب وراء عدم ذكر نص الرسالتين: "كرهت ذكرها لما فيه مما لا يحتمل سماعه العامة" (ولو قابلته لسألته: ترى من الذي جعل العامة تتصلب في هذه الآراء لو لم تكونوا أنتم العلماء من علمهم ونشأهم على كل هذا التزوير في التاريخ؟! أنتم تقومون بذلك ثم تلومون العامة على عدم ذكركم بعض الحقائق!) فلما جاء ابن هشام الحميري فإنه أراح نفسه والآخرين بعدم مجرد الإشارة إلى وجودهما! أي كما هو ديدنه مع ما يخدش كبار الصحابة ممن دخل في منازعات مع علي(ع). ولعل هذا هو السبب الذي جعل سيرته هي المعتمدة اليوم. وهذه من صور مودة القربى التي أمر الله بها في كتابه!

[56] نقل عن البلاذري في تاريخه، ولعل المقصود "أنساب الأشراف"؛ كما رواها المجلسي في "بحار الأنوار" ج45 ص328.

[57] صحيح مسلم ج4 ص2059 حديث 1017، وسنن ابن ماجة وغيرهما

[58] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج4 ص57. وإن كان في النفس شيء منها لأن الإمام(ع) لا يرد الناس بمثل هذا لأن فيه تصغيراً للآخر (فإن رده(ع) افتتحه بالقول ((يا ابن الحائك)) والمهن الشريفة ليس فيها غضاضة))، وإن كان ذلك ممكناً بلحاظ أن الآخر هو الأشعث الذي كان من أعداء علي(ع) الذين يحاولون ستر البغض والعداوة ثم بانت في مواقفه.

[59] شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد المعتزلي، ج9 ص54

[60] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد المعتزلي ج20 ص326، باب الحكم المنسوبة إلى الإمام علي(ع)

الفصل الثاني

البحث في السؤال الثاني

دور أئمة أهل البيت(ع) في الإسلام

ليس هنا مجال للبحث في الإمامة بشكل عام فإنها موضوع بحث طويل ومتنوع وقد كتبت فيه الكتب الكثيرة والمطولات عبر التاريخ الإسلامي الطويل. لذا فلا يوجد مجال سوى لأن نلخص دور الأئمة من آل محمد(ص) استهلالاً للبحث في دورهم وسيرتهم والمحتمل من التغيير فيما لو كانوا هم الذين تبوؤوا الخلافة بعد النبي(ص) بلا فصل. ويمكن الرجوع لكتب عديدة بحثت هذا الموضوع ولا سيما كتاب "المراجعات" للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي الذي هو عبارة عن مناظرات بينه وبين شيخ الأزهر سليم البشري رحمهما الله حول هذا الموضوع. وكذلك موسوعة الغدير للأميني، والعديد من كتب المتحولين إلى مذهب أهل البيت(ع) التي تتناول الموضوع بعين المكتشف (منها كتابي "العودة إلى الأصل إلى آل محمد"، نشر مؤسسة الفجر، بيروت / تجده أيضاً على موقع "العودة إلى الأصل" على شبكة الانترنت).

ماذا تقول الآيات والروايات؟

نستطيع القول، استناداً إلى آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي(ص)، بأن أئمة أهل البيت(ع):

➢ **أولاً: هم الأئمة المنصوص عليهم في خلافة رسول الله(ص)**

بقوله أن الخلفاء أو الأمراء اثنا عشر كلهم من قريش كما أخرج البخاري وغيره وذلك لأن عددهم إثنا عشر ولأن عدد غيرهم من الخلفاء أو الأمراء غير ذلك[61].

➢ **ثانياً: وبأنهم واجبو الإتباع وذلك لأنهم**

أ) معصومون لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب:33، والذي إن خصّ (إضافة إلى النبي(ص) والزهراء(ع)) الأئمة الثلاثة الأوائل علياً وولديه الحسن والحسين(ع)، إلا أنه عمّ الأئمة التسعة الآخرين من نسل الحسين(ع) نصاً عليهم من آبائهم الذين صاروا واجبي التصديق لكونهم مطهرين معصومين. وبما أنه لم تنزل آيات بعصمة غيرهم كان محالاً أن يكون أحد مقدماً عليهم[62].

ب) لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ آل عمران:55-56، والتي نزلت في حق

علي(ع) بالإجماع، فصار اتّباع علي(ع) واجباً كونه الولي بعد الله ورسوله(ص)، أي الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما كان النبي(ص) أولى بالمؤمنين من أنفسهم بنص الكتاب العزيز: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأحزاب:6[63].

ج) لقول النبي(ص): ‹‹تركت فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي›› (صحيح مسلم وغيره بألفاظ متقاربة)[64]. وهذا يعني أنه ليس القرآن وحده الذي يجب اتّباعه وإنما أهل البيت(ع)، ففي التمسك بالاثنين، وليس واحداً منهما فقط، يكون الأمن من الضلال.

د) لقول النبي(ص) لعلي(ع): ‹‹أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي›› وهذا يعطي لعلي(ع) منازل هارون(ع) وهي الوزارة والشراكة لقول موسى المذكور في الكتاب العزيز: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هارون أَخِي . أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ طه:29-32، ولم يستثن إلا النبوة ‹‹إلا أنه لا نبي بعدي›› كونه(ص) خاتم النبيين وشريعته خاتمة الشرائع. هنا أيضاً، لم يقل النبي(ص) لأحد غير علي(ع) مثل هذا القول فصارت لعلي(ع) وحده هذه المنازل الموجبة لاتّباعه.[65]

و) غير ما ذكرنا الكثير من الآيات والأحاديث التي توجب اتّباع الأئمة من أهل البيت(ع) والتي ذكرت في مصادر أهل السنة من تفسير وحديث وتاريخ والتي لا مجال لذكرها هنا.[66]

➢ **ثالثاً: وبأنه لا تجوز مخالفتهم**

فعلاوة على أن وجوب الإتباع يعني ضمناً عدم جواز المخالفة، فإن هناك النصوص الكثيرة التي حذرت من مخالفة أئمة أهل البيت(ع)، مثال ذلك:

أ) قول النبي(ص) خطاباً للمسلمين بعد قوله يوم الغدير عن علي(ع): ‹‹من كنت مولاه فعلي مولاه››، ‹‹اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله›› وبديهي لا يجوز التعرض لمعاداة الله تعالى وخذلانه[67].

ب) قول النبي(ص) عن أهل آية التطهير وهم نفسه الزكية وابنته وزوجها وولديها (الأئمة الثلاثة الأوائل): ‹‹أنا حرب لكم حاربكم وسلم لمن سالمكم››. وحرمة التعرض لحرب النبي(ص) أمر بديهي لا لداع لتوضيحه[68].

ج) قوله(ص): ‹‹مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هوى››[69] وقوله عنهم(ع): ‹‹المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم بهم لاحق›› [70] وهو حكم بالمروق والخسران لمن انحرف عنهم(ع) فيكون ممنوعاً بداهة.

د) غير ذلك الكثير من الأحاديث التي أخرجها الحفّاظ والتي منها ما كان مجمعاً عليه ومنها ما كان متواتراً. وكذلك آيات الكتاب التي لم نستند هنا إلا على المجمع عليه منها، وإلا فإن ما جاء منها في وجوب اتّباع أهل البيت(ع) وتحريم الانحراف عنهم ليس بقليل[71].

وهكذا صار الأئمة من آل محمد(ص):

-هم الأئمة الإثني عشر الذي قال النبي(ص) أنهم سيخلفوه؛

-واجبي الإتباع؛

-محرّم مخالفتهم والانحراف عنهم.

ولا يشك مسلم، أو هكذا الظن، في أن هؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون بهذه المواصفات لا بد وأن يكونوا هم:

1- خلفاء النبي(ص) على شريعته، بمعنى الأمناء والمكلفون بإيصالها إلى الناس.

2- خلفاء النبي(ص) على الأمة، بمعنى أنهم الحكام عليها لكي يستطيعوا القيام بواجبهم كأمناء وموصلين للشريعة تطبيقاً لها ومنعاً لعدم تطبيقها.

3- الملجأ في المشاكل والخلافات التي تنشأ بين المسلمين أنفسهم وتلك التي بينهم وبين غيرهم، والمنار الذي يهتدي به الناس في ظلمات الخلاف.

فبالإضافة إلى ما مرّ من نصوص، لعل قول النبي(ص) لعلي(ع)، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد:7، ‹‹أنا المنذر وأنت – يا علي – الهادي، بك يهتدي المهتدون بعدي››[72]، يجمع كل هذه الخصال، فهو يقيم علياً(ع) علماً للهدى ومنارة تطمح إليها عيون المسلمين للحصول على الحكم الشرعي الصحيح من جهة، وللحصول على العدل في المظالم من جهة أخرى، وللحصول على الدفع والتشجيع والتوجيه المستمر من أجل رقيّ الأمة وتصاعد رقيّها بين الأمم حتى تصير الأمة المبرّزة والمؤهلة لقيادة العالم ليس فقط لأنها تحمل الشريعة الخاتمة بل أيضاً لأنها تحمل التقدم العلمي في جميع فروع المعرفة.

وقبل أن ننهي هذا البحث الموجز في دور أئمة أهل البيت(ع) في الإسلام لا بد أن نلقي نظرة فاحصة لنرى فيما لو كان لهذه النظرية التي ذكرناها تطبيقاً على أرض الواقع. بعبارة أخرى، هل هناك ما يثبت أن الأئمة(ع) لو تسنّى لهم القيام بواجبهم كما أراد الله تعالى، كما ندّعيه هنا، كانوا سيتصرفون بشكل مخالف لتصرف الحكام والخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم منذ وفاة النبي(ص) وحتى العصر الحاضر؟ ذلك لأنه إن لم يكن هناك فرق بين المجموعتين في التطبيق بقيت النظرية معدومة الفائدة ولا يبقى لدينا سوى أن نلوم الظروف والقدر وغير ذلك على حالنا المزري، وأنه لم يكن في الإمكان أحسن من الذي كان!

نظرة سريعة إلى سيرة الأئمة من آل محمد(ص) ومقارنتها مع سيرة غيرهم

لنذكر شيئاً يسيراً جداً من سيرة الأئمة(ع) في مجالات الحياة المختلفة ونقارن بينها وبين ما كان عليه الخلفاء والحكام لنتأكد فيما إذا كان الأئمة من أهل البيت(ع) أصلح من غيرهم لقيادة الأمة، وفيما إذا كانت طريقتهم في التعامل مع الحياة والمجتمع والناس مختلفة إلى درجة يمكن أن نعتقد معها بأن الماضي والحاضر كانا سيكونان مختلفين لو أن هؤلاء الأئمة(ع) تسلموا القيادة وحسبما أراده الله تعالى. هذا، وسوف لن نقارن بين الأئمة(ع) وغيرهم في أخلاقهم وسيرتهم مع أهليهم ومواليهم وما إلى ذلك لأننا هنا في معرض الحديث عن السيرة العملية التي يقف وراءها أمران[73]:

- أولاً: العلم

- ثانياً: درجة البعد عن ارتكاب المعاصي.

وفي حالة الأئمة(ع) فإن هذين وصلا إلى الدرجة القصوى: ففي العلم كانوا المدخل إلى علم النبي(ص) «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[74]، وفي درجة البعد عن المعاصي كانوا معصومين مطهرين (أشرنا إلى آية التطهير وغيرها قبل قليل فراجع). وهكذا فإن الذي ترتكز عليه هذه الصفحات المشرقة من تاريخهم إنما هو العلم والعصمة.

1- المسؤولية تجاه الأمة

في الشورى التي رتبها عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة بعده خرج الجميع منها إلا علياً(ع) وعثمان. فلما لم يرض أي منهما بالتنازل عنها للآخر عرض عليهما عبد الرحمن بن عوف – والذي جعله عمر حاكم الشورى – "العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين". رفض علي(ع) ذلك وقبلها عثمان دون تردد[75]، وكان رفض علي(ع) على أساس أن سيرة الشيخين ليست ملزمة شرعاً من جهة، ولأنه يعد نفسه أعلى كعباً منهما في العلم من جهة أخرى[76]، ولأنه يعد الكثير من سيرتهما خروجاً عن الشريعة من جهة ثالثة[77]. أما عثمان فكانت الخلافة أهم عنده من كل شيء فيما يبدو، أو على الأقل فإنه كان يرى للشيخين أبي بكر وعمر من المنزلة في التشريع تساوي منزلة كتاب الله وسنة نبيه(ص) من حيث إلزاميتها على الناس.

لقد اعترض البعض على موقف علي بأنه موقف غير سياسي لأنه كان يمكنه أن يوافق على الشرط ثم لا يلتزم به بعد مبايعته خليفة. ولكن الحقيقة هي أن علياً ينظر لأبعد من جيله هو، فهو يريد أن يعلن للمسلمين الذين يعاصرونه وكذلك الذين سيأتون بعد عصره أن سيرة أبي بكر وعمر ليست ملزمة للمسلمين، بل إن فيها ما يتعارض مع الشرع.

هذا، مع عقيدتي بأنه حتى وإن قبل بهذا الشرط كان عبدالرحمن وأصحابه سيخرجون بشرط جديد أثقل من الأول، وهكذا إلى أن يرفض علي كما يعرفون هم أنفسهم من تشدده في الحق وتساهل غيره فيه.

وهنا نرى أن هذا الموقف من بعض الصحابة الكبار أدى إلى لجوء الفقهاء بعد ذلك، وهم يحاولون الدفاع عنهم، إلى الخروج برأي فقهي وهو أن فتوى الصحابي تخصص الكتاب وتقيد مطلقاته[78]، وهكذا صار للصحابة دور في التشريع لم ينزل به قرآن ولم تتحدث به سنّة.

ولعل القارئ يتلمس هنا كيف أن الانحراف عن أهل البيت أخذ يلوّن الحياة الإسلامية بألوان مختلفة من الخلل والتغيير اللذين وإن بديا ضعيفين في مبتدأهما إلا أنهما سيشملان كل شيء بعد ذلك.

وهكذا فإن البذرة التي بذرتها الشورى العمرية هي التي كبرت ونمت وبسقت وصارت فيما بعد شجرة مشاكل كثيرة مستعصية أدت إلى أخطاء عثمان وتجاوزاته ثم الثورة عليه ثم قتله ثم البيعة غير المستقرة لعلي ثم الحروب الداخلية للمسلمين وما تلاها من تربع بني أمية على منصب الخلافة وما جر بعدها.

نفس الخطأ في الفهم فيما يخص موقف الإمام علي(ع) بعد أن بويع بالخلافة ورفض إبقاء معاوية بن أبي سفيان على ولاية الشام، مبيناً موقفه من خلال الآية الكريمة ﴿وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾ الكهف:51. قالوا: لو أنه أبقى معاوية على حكم الشام ريثما يبسط حكمه ثم يعفيه من منصبه، فدل عدم فعله ذلك على عدم درايته بالسياسة. إلا أن علياً(ع) كان إماماً للناس سوف تكون سيرته محط أنظارهم للاقتداء بها كونها الكاشفة للشريعة في أحكام الكتاب والسنة، ولا سيما ما يخص الحاكم والحكم هنا، ولم يكن حاكماً لا تعدو سيرته أن تكون تفاعلاً وقتياً مع ظروف مؤقتة ثم تزول هي ويمضي هو دون أن يكون هناك بُعد شرعي لمواقفه وقراراته. كان أمير المؤمنين(ع) ينظر إلى الأمة في امتدادها الزمني، ولهذا تجد الأمة، أو الكثير منها، بل كل من اطلع على سيرته المباركة من الناس، مسلمين وغير مسلمين، انبهروا بها وتمنوا ولا يزالون أن يتمكنوا من العيش في ظلها والاهتداء بهديها.

ثم من قال أن معاوية كان سيرضى بالعزل بعد مدة؟ لا أشك أنه كان سيعلن العصيان، ما يعني اندلاع الحرب بين الطرفين، وبالتالي فلا فائدة من تأخير عزله. ومن يدري، لعل معاوية كان سيعمل خلال تلك المدة التأجيلية المفترضة إلى التحالف مع أعداء علي(ع)، بل مع أعداء الإسلام من الروم الذين كان يجاورهم وكان قد عقد هدنة معهم فعلاً، ما لا يعني سوى تأجيل الخطر على الدولة والأمة من جهة الشام وهذا الباغي الذي كان يحكمهما، لا إزالته من الأساس.

إن هذا المنهج، دفع الخطر على الدين والأمة منذ البدء، وعدم التأجيل إلا إذا لم يكن هناك مجال غيره أو كان هو الأصلح، هو الذي دفع خليفة الحق بعد علي(ع)، إبنه الحسن السبط(ع)، إلى دعوة الناس إلى الخروج لمواصلة القتال ضد الباغي معاوية بن أبي سفيان، فيما رأى أن الناس قد تعبت لم يقبل بالصلح إلا بعد أن عرض عليه معاوية ذلك أولاً، ثم عرض الأمر على الناس: مواصلة القتال أم الإبقاء على البقية منهم، فلما كان خيارهم هو "البقية البقية" كما رفعوا بها أصواتهم، ذهب إلى الصلح. ثم وضع الشروط الكثيرة التي تضمن حقوق الأمة بأقصى ما يمكن، ومنها الحفاظ على أرواح شيعة علي(ع) وكرامتهم – حيث بدأت تلك الطائفة تبدأ بالتبلور بسبب إصرارها على الالتزام بمرجعية آل محمد(ص) –، مضيفاً تحديد أن الأمر بعد معاوية يعود إليه(ع)، فإن كان قد حدث به حدث فإلى أخيه الحسين(ع)، ما يعيد الخلافة إلى موقعها الإمامي.

وبعد مقتله(ع) بالسم – أرواحنا فداه – وجد خليفته الحسين(ع) أنه واجبه الشرعي هو الصبر على الصلح، أولاً لأن من واجبه أن لا يخلف ما شرطه على نفسه في الصلح، وشروط الصلح ملزمة له كما كانت ملزمة لأخيه(ع) لأنهما لا ينطلقان من بعد شخصي بحت، بل من موقع الإمامة، فكأن الحسن(ع) عندما صالح معاوية إنما كانت الإمامة الحقة تعقد صلحاً مع الباغي الذي صارت له اليد الأعلى في المقدرات بينما صارت القوى التي تحت يد الإمامة الحقة في تدهور متسارع. فلما تغيرت الحال ببيعة يزيد بعد أبيه، لم يعد الالتزام بالصلح قائماً لهلاك الطرف الآخر، ثم

صارت الأمة تحت خلافة لا تحاول التغطية على فسقها وفجورها كما كانت خلافة أبيه معاوية، لذا كان مصلحة الأمة القيام لإحداث تلك الصدمة علّها توقض الأمة، فإن لم تفعل في وقتها فستفعل لاحقاً، على الأقل في إتمام بلورة الطائفة الملتزمة بإمامة أهل البيت(ع) التي لن تطيع الظالمين.

وبعد حوالي 140 عاماً، عندما تتاح الفرصة لأحد الأئمة المتأخرين، وهو الإمام علي الرضا(ع)، أن يتسنم المنصب الثاني في الدولة وعلى أساس الترشيح للمنصب الأول، أي الخليفة، بعد وفاة الخليفة الحاكم وهو المأمون، فإنه(ع) رفض أن يستخدمه الأخير في سلطة غير شرعية سترتكب قطعاً مخالفات شرعية من أجل خداع الأمة، فحاول التملص من الأمر، إلى أن خيره المأمون بين القتل أو القبول بمنصب ولاية العهد، فقبل(ع) بشرط أن لا يعين ولا يعزل ولا يأمر ولا ينهي ولا يقوم بأي شيء، وذلك من أجل أن تعرف الأمة – من خلال الوزراء والعمال والحجّاب – ذلك فلا تنخدع من جهة ولا تحمل الإمامة الحقة أوزار السلطة المنحرفة. هذا، مع أن غيره كان سيقبل ويعمل من خلال ولاية العهد على ترتيب أموره للوصول إلى السلطة، أو أن ينتظر موت الخليفة ليبايع هو. فكان موقفه احتياطاً على قدسية الإمامة الحقة من جانب وحق الأمة من جانب آخر، وبالفعل كان ذلك، إذ لم ينقل التاريخ أن أحداً تكلم في حق الإمام(ع) كلمة واحدة أنه كان وراء المنصب[79].

2- تقديم مصلحة الإسلام على مصلحتهم(ع) الشخصية

من الواقعة التي ذكرناها أعلاه يتضح لنا أن علياً(ع) كان ينظر إلى مصلحة الإسلام قبل مصلحته هو. ولذلك قال: «لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصة»[80] وقوله عن بيعة أبي بكر بعد استثنائه: «أَمَا وَ اللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابن أبي قحافة... وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً»[81].

أما موقف عثمان فكان النقيض من ذلك، فهو يعلم أن علياً أعلم منه وأقدر على تصريف شؤون الأمة بما يرضي الله ورسوله(ص).

والواقع هو أن جميع الخمسة دخلوا الشورى مع علمهم بأنهم أقل من علي(ع). فقد أورد ابن قتيبة قول سعد بن أبي وقاص أنهم دخلوا الشورى «ونحن نعلم أن علياً أحق بها منا.. ويشاركنا في محاسننا ولا نشاركه في محاسنه»[82].

أيضاً، كانت مصلحته الشخصية تقتضي أن لا يهب لنجدة عمر بن الخطاب في المواقف التي كان يجهل فيها الحكم الشرعي، وما أكثرها من مواقف، لأنه(ع) كان سيظهر علمه هو وجهل الخليفة مما يرفع من أسهمه عند الناس. إلا أنه كان لا يبخل بالنصيحة على عمر عندما يحتاج إليها، سواء بادر الأخير بالسؤال هو أم لا[83]، ليصحح الخطأ وليظهر الحكم الشرعي محاولاً

وسعه تقليص دائرة الانحراف عن الشرع والتي كانت تتسع تدريجياً يوماً بعد آخر. ولعلنا لا نحتاج أن نذكر أية حادثة ويكفينا أن نذكر قولة عمر المشهورة في هذا المجال: "لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن"[84] وقولته الأخرى: "لولا علي لهلك عمر"[85] وقولته الثالثة: "لولاك لافتضحنا"[86].

أما موقف الإمام الحسن(ع) من معاوية وقبوله التنازل عن بيعة العراق والحجاز والمشرق لمعاوية الذي بويع في الشام ومصر مع علم جميع المسلمين قديماً وحديثاً بالفارق الشاسع بين الرجلين إنما يعطي دليلاً جديداً على تقديم أئمة أهل البيت(ع) لمصلحة المسلمين على مصلحتهم الشخصية. هذا، مع التنبيه إلى أن تربع الأئمة(ع) على دست الحكم هو في مصلحة المسلمين ولكن إذا كان المسلمون قد غفلوا عن ذلك وعرّضوا أنفسهم للذبح والتقاتل والتشرذم فإن المصالح تختلف والمواقف لا بد وأن تختلف[87].

3- العـــدل

يتغنى المسلمون بعدل عمر بن الخطاب ويلقبونه الخليفة العادل. ولا شك في أن سيرة عمر مع أقربائه وولاته كانت سيرة حازمة عادلة (فيما عدا مع معاوية حيث ترك له التصرف كما يشاء) بحيث اشتهر قول من رآه نائماً تحت شجرة "عَدِلْتَ، فَأَمِنْتَ، فَنِمْتَ". إلا أن المفارقة هي أن بعض الأحكام العمرية التي بنى عليها المؤرخون والفقهاء رأيهم في عدالة عمر هي نفسها التي تنطق بنقيض ذلك. مثلاً: تفريقه في العطاء بين الناس على أساس السبق في الإسلام أو الهجرة أو غيرها من مراحل الإسلام[88] عدوّه دليلاً على عدله[89]،

في حين أنه مناقض للعدل في الصميم كون العطاء يكون للمسلم بغض النظر عن تاريخ إسلامه، وإنما سيجازي الله تعالى في الآخرة على السبق والجهاد والهجرة وغيرها. في الجانب الآخر رفض علي(ع) ذلك وردّ العطاء إلى ما كان عليه لأنه حكم الله[90]. وكانت النتيجة أن الذين اعتادوا على أن يدفع لهم أكثر من غيرهم في زمن عمر واجهوا حالة جديدة من علي(ع) وهي أن دخلهم السنوي سيقل عن ذلك، فكانت هذه إحدى بذور الخلاف – كيف لا والمولى عز وجل يقول ﴿وتُحبّون المالَ حُبّاً جَمّاً﴾ الفجر:20. ولعل طلحة والزبير كانا من تلك المجموعة التي كانت ستخسر مالياً في عهد علي(ع)، فكان هذا سبباً إضافياً إن لم يكن رئيسياً لخروجهما عليه(ع). ولعل من المناسب أن نذكر أن عمر خصص لعائشة أكثر من الدخل السنوي لسائر زوجات النبي(ص) دونما سبب واضح[91]، وهذه تدل على عدم عدل عمر كما لا يخفى.

4- الطاعة الكاملة للشرع الأقدس

عندما جاءت فاطمة(ع) تطلب من أبي بكر حقها في فدك، تلك الأرض الزراعية التي وهبها إياها أبوها(ص) في حياته، قال لها أبو بكر أنه سمع النبي(ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة. ولكن الزهراء(ص) رفضت هذا القول من جهتين: الأولى أنه من المستحيل أن يعلم أبو بكر من شأن إرث النبي(ص) ما يجهله أهله ولا سيما هي نفسها وزوجها علي(ع)، والثانية أن الحديث الذي ادّعى الخليفة سماعه يناقض آيات الكتاب العزيز مناقضة واضحة حيث قال تعالى: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ

اللَّـهِ﴾ الأحـزاب:6، وقـال في خـبر النبـي زكريـا(ع): ﴿يَرِثُنِـي وَيَـرِثُ مِـنْ آلِ يَعْقُـوبَ﴾ مـريم:6، وهـي صـريحة في أن الأنبيـاء(ع) يورثـون أبنـاءهم. إلا أن الخليفة رفض كل ذلك، بل رفض شهادة علي(ع) وأم أيمن والحسـنين(ع) بـأن فـدك كانت في يد فاطمة(ع) تتصرف فيها كمالكة لها بعد أن نحلها إياها أبوها(ص)[92].

هنا، نحن أمام مخالفة واضحة وصريحة للشرع من قبل أول خليفة، فلسنا أمام خليفة أموي أو عباسـي أو عثمـاني، وإنمـا أول خليفـة راشـدي. وهـذا يؤكد قولنا أن الخلل بدأ منذ وفاة النبي(ص) لأنه كان انحرافاً عـن إمامـة أهـل البيت(ع). أعني ليس تقادم العهـد وتـآمر الأعـداء وغـير ذلـك هـي الأسـباب الأولى في الخلل وإنما مجرد ترك أهل البيت(ع) هو الأساس في الانحراف.

في مقابل ذلك، نرى أن علياً(ع) كان لا يخالف الشريعة المقدسـة في حـرف واحد. عندما جاءه طلحة والزبير يشكوان مساواتهما في العطـاء مـع غيرهمـا أخبرهما أن هذا هو الحكم الشرعي فالمسلمون سواسـية[93]، ولكنهمـا كانـا قـد اعتادا على العطاء الأكثر كونهما من المبرزين من قـريش، وقـريش صـار لهـا الملك وليس المسلمون جميعهم. وعندما جاءته المرأة العربيـة تطلـب منـه(ع) أن يعطيها أكثر من غير العربية قال لها: «إني والله لا أجـد لبنـي إسـماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحق»[94]. ولكن هذه كانت أيضاً قد اعتادت على تمييز العرب على غيرهم من قبل الخليفة عمر العادل ثم عثمان الذي سار علـى منواله.

وفي حين أن عثمان أسرف في عطاء أقربائه وأبناء عمومته إلى الدرجـة التي صارت سبباً رئيسياً للثورة عليـه وقتلـه، نجـد أن عليـاً(ع) يحمـي حديـدة

ويدنيها من أخيه عقيل بن أبي طالب (الأكبر منه سنّاً) قائلاً: ‹‹أَتئنُّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار أحماها جبّارها لغضبه؟››[95] لأن عقيلاً طلب زيادة في عطائه.

ولقد كان ذلك من أسباب نقمة الكثيرين عليه وانتقاض الأمر عليه وعدم استقراره. وهذا لا يعني أن الالتزام بالشرع يؤدي بالضرورة إلى تمرد الناس، كيف ولو كان كذلك لما وضعه الله تعالى بهذه الصورة لأنه يكون عبثاً، ولكنه يعني أن تمرد النفوس حصل لأنها عندما صار الأمر لعليؑ كانت قد اعتادت على عدم العدل وعدم التقيد المطلق بالشرع وعلى الكثير مما هو بعيد عن نص الشرع وروحه. وهنا أيضاً تقع اللائمة في المقام الأول على من غيّر وسنّ السنن السيئة وليس فقط على من جاء بعده وسار على منواله.

وحتى في الأمور التي لا ظلم فيها لأحد، نجد أن الخلفاء الذين سبقوا علياًؑ يغيرون في العبادات ما شاؤوا حتى جعل عمر صلاة تراويح رمضان صلاة جماعة[96] بعد أن رفض النبيﷺ أن يصلي أحد صلاة جماعة غير المفروضة والعيدين وغيرهما مما هو معلوم[97]، وحتى صلى عثمان صلاة تامة في السفر[98]. في المقابل نجد أن علياًؑ لم يرض بذلك وكان يعيد الأمة إلى الشريعة الصحيحة ما وسعه ذلك، في حين كان يلاقي ممانعة في بعض الأحيان كما في صلاة التراويح بالذات حيث صاح الناس في جامع الكوفة "واسنّة عمراه"[99]. وهذه تدلنا على استشراء الخلل والبعد عن الشرع في نفوس الناس بعد أن اعتادوا عليه سنين طويلة.

واللطيف، أو المؤلم لا أدري، هنا هو أن الفقهاء يذكرون قول النبي(ص): «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[100] في حين أنهم يأمرون الناس بصلاة التراويح جماعة كما ابتدع عمر مع أنه هو نفسه سماها بدعة بعد أن قال عندما رأى الناس مجتمعين على قارئ واحد كما أمر:"نِعمَتْ البدعة هي!"[101] وهنا أيضاً نتلمس الخلل في تفكير الفقهاء المؤسس على الخلل الذي بدأ في جيل الخلافة الراشدة.

5- التعامل بالحسنى مع الرعية

في الوقت الذي نجد المسلمين يرتعبون من عمر بن الخطاب إلى درجة تسقط المرأة حملها عندما تقف أمامه[102]. وفي الوقت الذي يقول للمسلمين أن قريشاً هي التي اختارت[103] فصيّر لقريش أمور المسلمين بلا نص من الله ورسوله(ص)، وفي الوقت الذي يمنع الصحابة، أو أقل من يخشى من تمردهم، من الخروج للجهاد في حروب الفتوح ويحبسهم في المدينة[104]، وفي الوقت الذي ينفي نصراً إلى خارج الجزيرة العربية لمجرد أنه وسيم الوجه افتتنت به بعض النساء[105]، وفي الوقت الذي يضرب ويعاقب على السؤال والكلمة والحركة، تجد أن علياً(ع) لا يقوم بشيء من هذا مطلقاً. وحتى عندما وجد الناس يصلون قبل صلاة العيد وطُلِبَ منه أن ينهاهم فإنه(ع) تركهم مع التنبيه، قائلاً: «إذا أكون كما قال الله - عز وجل - ﴿الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾، ولكن نحدثهم بما شهدنا مع رسول الله(ص)، خرج فلم يصل قبلها ولا بعدها»[106].

ولقد كفانا مؤونة البحث في سيرته وسيرة غيره قول أبي حنيفة النعمان إمام المذهب بخصوص سيرة الإمام(ع) في البغاة من المسلمين: " ما قاتل أحد علياً إلا وعلي أولى بالحق منه، ولولا ما سار علي فيهم ما علم أحد كيف السيرة في المسلمين"[107]. فإذا كانت السيرة في الجماعة من المسلمين الباغية على جماعة الحق بعد وقوع الحرب الطويلة وسفك الدماء هي التي تؤخذ من علي(ع) وإلا ما عرف الناس كيف تكون، فإن الأمور الأخرى ينبغي أن لا يذهب بها بعيداً عنه(ع) بعد أن تبين أنه وحده الذي عنده العلم في كل قضية، سلماً وحرباً، عبادة ومعاملات، عقيدة وشريعة، بينما لا يملك الآخرون إلا بعض العلم، وعلى تفاوت لا يمكن معرفته على وجه الدقة – وبذا فلا يمكن الركون إليه – لأنه ليس مما أمرنا الله ورسوله(ص) بمعرفته بعد أن أمرانا باتباع من عنده العلم كله.

6- حق الأمة في البيعة

إن أئمة أهل البيت(ع) يصرحون بأنهم الأئمة المنصوص عليهم من الله ورسوله(ص)[108] وأنهم حجج الله على خلقه[109] والخلفاء نصاً من النبي(ص) بأمر الله تعالى[110].

وهذا يعني أنه ليس لأحد حق اختيار غيرهم، بل لا يجوز اختيار غيرهم مطلقاً. وهذا النص ليس نصاً في صحف أو بكلمات عابرة نطق بها النبي(ص)، وإنما نصوص كثيرة توّجت في بيعة الغدير، حيث أعلن النبي(ص) خلافة علي(ع) وأمر المسلمين الحاضرين أن يبايعوه بعد أن حذر من مخالفته، كما

أعلن أن الأئمة من بعد علي(ع) هم أولاده الطاهرون(ع). وختم الإعلان والتصريح والتحذير والبشارة بأمر المسلمين الحاضرين يومذاك بأن يبلغوا الغائبين عنها، وهو ما يعني أن البيعة لزمت جميع المسلمين الذين تصلهم أخبار هذه البيعة حيثما كانوا وفي أي زمان عاشوا[111].

على الرغم من ذلك نجد أن علياً(ع) يرفض أن يبايع بالسر أو ‹‹من وراء رتاج›› على حد تعبيره(ع) وذلك عندما جاءه بعض أصحابه يعرضون عليه البيعة في الدار حيث رفضوا أن يبايعوا غيره[112]. وعندما يقتل عثمان وينهال عليه الناس من كل جانب يريدون بيعته وبشكل منقطع النظير ‹‹حتى لو وطئ الحسنان وشق عطفاي›› كما قال عليه السلام[113]، إذا به يقول لهم: ‹‹أنا لكم وزير خير مني أمير››[114]. وذلك ليختبر أولاً صدق رغبة الناس من جهة، ومن جهة أخرى لكي يكون قد نبّههم إلى أن سيرته ستكون مخالفة لسيرة من قبله حيث سيكون أشد مراعاة لحدود الله مما قد لا يطيقه بعضهم لا سيما وقد اعتادوا على التجاوزات. ولا يقبل البيعة إلا بعد أن يلحوا عليه خصوصاً أولئك الثوار القادمين من مصر والعراق[115].

وعندما يقتل علي(ع) يبايع الناس لابنه الحسن(ع) بيعة علنية بملء رغبتهم[116]. ولما يرى الحسن(ع) أن قسماً كبيراً من الأمة الإسلامية قد بايع غيره (معاوية) يقبل بالصلح معه ويتنازل عن حقه الذي يعرفه المسلمون جيداً، لا سيما وقد تلقوا بيعته(ع) بعد مقتل أبيه(ع) دون اعتراض ما عدا معاوية والبلاد التي تحت سلطته، إضافة إلى اعتقاده هو(ع) بحقه الثابت شخصياً وكواحد من أهل البيت(ع) الذي نص النبي(ص) على إمامتهم بعده مباشرة[117].

وعندما يخرج الحسين(ع) على اللعين يزيد، لم يكن خروجه إلا بعد أن وصلته ألوف الرسائل بالبيعة من العراق[118]. وحتى عندما وصل ووجد القوم قد تراجع منهم من تراجع وغاب منهم من غاب، ذكرهم أولاً بكتبهم إليه، ثم لما أنكروا عرض عليهم أن ينصرف[119].

كل ذلك مراعاة لحق الأمة في بيعة من تشاء، فإن بايعت الإمام المنصوص عليه من الله ورسوله(ص) وقبلت به برضاها سعدت وبوركت وأجرت، وإن رفضت ذلك، أو قل إن رفض معظمها ذلك بحيث لم يستطع الإمام الحق ومن معه أن يحققوا إرادة الله في الحكم، تركوا الأمة واختيارها لتذوق وبال أمرها. وعندها يكون حالها كما وصفته الزهراء(ع) يوم أدارت الأمة ظهرها لوليها المعصوم المنصوص عليه من النبي(ص) والتفت وراء غيره، قالت(ع): «إستبدلوا والله الذنابى بالقوادم والعجز بالكاهل.. بئس للظالمين بدلاً.. أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدِّي»[120]. عتاب وتحذير ومحاججة لكي تتنبه الأمة إلى أن الذي يهدي إلى الحق مطلقاً ولا يحتاج إلى من يهديه هو الأحق بالإتباع، فلا قسر ولا إجبار.

في مقابل موقف الأئمة(ع) هذا، يحدثنا التاريخ عن موقف مخالف تماماً من غيرهم. فقد ذكرنا حال بيعة السقيفة وهي البيعة الأولى المخالفة لما أراد الله تعالى فلا داع للإعادة. أما عمر فلم تكن هناك بيعة ولا حتى مشورة، فقد أملى أبو بكر وهو يحتضر النص باستخلاف عمر بن الخطاب على عثمان الذي كان يكتب ذلك، وكأن الأمر لا يعني أحداً من المسلمين. وأما عمر فقد جعلها في ستة كلهم من قريش. فإن كان عمر يعتقد أن الأنصار ليس

لهم حق فيها استناداً إلى حديث النبي(ص): ‹‹الأئمة من قريش›› وبذلك فلم يدع أحداً من الأنصار في الشورى، فما له قال: «لو كان سالم حياً لولّيته» وسالم لم يكن من قريش ولا من العرب؟ بل أن مجرد ذكر سالم وذكر أبي عبيدة يدل على أن عمر إنما جعلها شورى لأن اللذين كانا قد اتفقا معه على مداولتها بينهم، وعلى الأقل من يعتقد برأيه الشخصي أنهما الأصلح، قد توفيا. وهنا أيضاً، أين باقي المسلمين من البيعة؟ هذا، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل الشورى والتي جعلت الحق لعبد الرحمن بن عوف في فصل الخطاب دونما سبب واضح، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سابق فراجع.

وعندما يعلن عمار بن يسار أن البيعة في الشورى يجب أن تكون لعلي(ع) ويحذر من الاستمرار في الانحراف عن أهل البيت(ع) قائلاً: "إلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟" نجد أن أعداء النبي(ص) السابقين ممن دخلوا الإسلام كرهاً ينتهرون عماراً بالقول: "لقد عدوت طورك يا ابن سمية! وما أنت وتأمير قريش نفسها!"[121]. أي الإمرة هي إمرة قريش وليس خلافة النبي(ص) على الدين والدنيا. بعبارة أخرى، قبيلة قريش تختار زعيمها وأن هذا الزعيم هو خليفة المسلمين لأن قريشاً تزعمت المسلمين. أما كيف تزعمت قريش المسلمين وبأي حق، وإن كان ذلك حقاً فمن هم الأشخاص المؤهلون لذلك، فهذا أمر غير مهم في عرفهم.

وأما بيعة ملوك بني أمية والعباس وغيرهم فلم تكن إلا بيعات قسرية كسروية هرقلية ليس للإسلام فيها شأن مطلقاً. فقد كان كل خليفة يتصرف في الأمة وكأنها ملك خاص به وبعائلته لدفعه لمن يشاء بعد موته. وهذا أدى إلى

الاغتيالات والمؤامرات وقيام الحروب بين الأخوة وأبناء العمومة من أجل الخلافة. كل ذلك والأمة بعيدة عن ذلك اللهم إلا في استعمالها كوقود لهذه النزاعات.

هنا أيضاً، نجد آثار ذلك في أتباع الحيّين. فأتباع أهل البيت(ع) لا يرتضون الحاكم لمجرد أنه صار حاكماً، ولذلك عُدّوا مشاغبين ومثيرين للمشاكل يجب كبح جماحهم أو تطرفهم حسب تعبير هذا الزمان، وأما غيرهم فنجد أنهم يرتضون الحاكم لمجرد أنه وصل إلى الحكم، وإن حدث أن أحداً أراد الخروج عليه سارع الفقهاء إلى تذكيره بالأحاديث الموضوعة أو التي تستعمل في غير مواضعها «أطع الأمير وإن جلد ظهرك وأخذ مالك» وما إلى ذلك. وقد عاصرنا انتصار الثورة الإسلامية في إيران الشيعية المذهب ورأينا أن الفقيه المنتصر لم يفرض الحكم الإسلامي لمجرد أن الثورة كانت إسلامية دون شك ولمجرد أن الشعب مسلم ولمجرد أن الناس بايعته وهو في الخارج بيعة علنية كبيرة، بل نراه دعاهم إلى أن يعلنوا رأيهم بصراحة في شكل الحكم الذي يريدونه. ويستطيع من يريد أن يقارن بين ذلك وبين جهات من الطرف الآخر وكيف تتعامل مع هذه القضية، سواء كانت حكومات مستقرة أو ثورات ناشئة.

7- تعليم الأمة حساب حكامها

أكثر من ذلك، كان الأئمة(ع) يعلّمون الناس كيفية حساب حكامهم، فيقول علي(ع) لأهل الكوفة: «إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فأنا خائن»[122].

وقد صرّح بذلك معاوية إذ قال لامرأة من أهل العراق: «لقد لمظكم – أي يا أهل العراق – ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تفطمون»[123].

هذا في حين أن الناس كانت ترتعب من الكلام مع من سبقه، إلى أن وصل الحال بعثمان بن عفان أن ضرب الصحابة الكبار عمار بن ياسر وعبد الله ابن مسعود وأبا ذر الغفاري ثم نفاه إلى خارج المدينة لأن كل واحد منهم اعترض عليه فيما كان يراه من تجاوزات الخليفة ووزيره وبان عمه مروان بن الحكم[124]. ثم آل الأمر أن صار مجرد التفوّه بنكتة على الحكام يؤدي إلى السجون وقد يؤدي إلى الموت. وما ذلك إلا لأن الأمة جرّدت من حقوقها شيئاً فشيئاً، ثم اعتادت الأمة نفسها على ذلك ورضيت به بما أسسه لها فقهاء الانحراف عن أهل البيت(ع) من أن طاعة الحكام واجبة سواء كانوا عدولاً أم لا، وأن الخروج عليهم خروجاً على الدين حتى وإن كانوا ظلمة فاسقين لا يراقبون حدود الله ولا يحترمون ما حرمه من عباده[125].

8- الحرص على علوم الشريعة: الكتاب والسنّة

لا خلاف في أن من أهم واجبات الحاكم المسلم هي الحفاظ على علوم الشريعة الإسلامية ولا سيما فيما يخص الكتاب والسنّة من تفسير وتصحيح وشرح وغيرها. وتتضمن هذه المسؤولية جمع هذه العلوم وترتيبها ونشرها بين

المسلمين وترجمتها وكل ما من شأنه أن يوسع انتشارها بين المسلمين ثم لعرضها على غيرهم. فماذا كان موقف الخلفاء من ذلك؟

نحن نعرف أن أول من أمر بكتابة الحديث الشريف هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي[126] الذي سار بنهج يغاير نهج خلفاء بني أمية[127]. وهذا يعني أن الحديث الشريف لم يكن مكتوباً إلى عصره، أي بعد تسعين سنة من بدء الخلافة الراشدة.

والمتتبع للروايات التاريخية في ذلك يرى نهجاً مختلفاً بين أبي بكر وعمر وعثمان ونهج علي وأولاده(ع) في نشر الحديث وتفسير القرآن العزيز. فنحن نجد أن أبا بكر يجمع ما عنده وعند غيره من الصحابة من الحديث الذي كان مكتوباً في صحف من جلد ثم يحرقها[128]، ونجد أن عمر يأمر الناس بجمع صحف الحديث عنده، وبعد أن يفعلوا ذلك – ولعلهم اعتقدوا كما هو المعقول أنه يريد جمع حديث النبي(ص) – نجده يحرقها جميعاً[129].

وفيما يخص القرآن نجد أن الشيخين ليس فقط لم يجمعاه، بل أنهما رفضا أن يعتمدا المصحف الذي جمعه علي(ع) بعد وفاة النبي(ص) وجاء به إليهما[130]. ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان فجمع الناس على مصحف واحد وأحرق جميع المصاحف[131]. ويتبين من البحث أن المصاحف التي أُحرقت كانت هي النسخ التي تضمنت تفسيراً (مبسطاً بالطبع) للآيات أو أسباب نزولها. كما تقول بعض الروايات أن أحد الصحابة أماث (أي فتت) في الماء صحيفة فيها حديث النبي(ص) في أهل بيته(ع) وذلك لأن الخليفة عمر منع من ذلك[132]. وهذا يشير إلى السبب في المنع والحرق فيما بعد وهو منع وصول

تفسير الآيات النازلة في أهل البيت(ع) أو حديث النبي(ص) في فضلهم ووجوب اتّباعهم والتحذير من تركهم والانحراف عنهم إلى أيدي الناس فيعملوا بها وينتفضوا على الخلفاء الآخرين.

ولقد وصل الحال في هذا المنع الشديد أن الخليفة عمر عاقب بالجلد حتى الإدماء الرجل المسلم (صبيغ التميمي) الذي سأل عن تفسير آية واحدة من كتاب الله ﴿وَالذّارِياتِ ذَرْواً﴾ الذاريات:1، ثم أصدر منعاً بمجالسته فكانت حلقات المساجد «تتطاير كالفراش إذا دخل» على حد تعبير المؤرخين![133]. كانت نتيجة ذلك أن طال العهد بالناس، وتوفي معظم الحفاظ، ومن بقي منهم كان يخشى التحديث، ومن تحدث منهم كان يلقى الضرب والعقاب والنفي كما حدث لعمار وأبي ذر مثلاً.

ثم عندما صار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان كان أحوج ممن سبقه إلى طمس فضل أهل البيت(ع) لأنه كان خلواً من أي فضل، بل جاءت الأحاديث ونزلت الآيات في ذمه وأهله[134]، فبذل المال الكثير لوضع الحديث في مدح أبي بكر وعمر وعثمان وفي ذم علي(ع)، وأمر بهدم دار من يتحدث بفضل أهل البيت(ع) وحرمانه من العطاء[135]؛ فليس غريباً أن يختلط الحق بالباطل وتصبح قضية إمامة أهل البيت(ع) ومعها الكثير من الأحكام الإسلامية والمفاهيم الإسلامية عرضة للأخذ والرد بعد أن كانت واضحة وضوح الشمس في كتاب الله وسنة نبيه(ص). ولعل هذا كان أكبر معول هدم في جسم الإسلام الذي كان لما يزل حديثاً معرضاً للزلازل، وأدى إلى ما نحن فيه من خلافات ومشاحنات وفرق ومذاهب ما كانت لتنشأ لو كان عند المسلمين تفسير وحديث مكتوب منذ وفاة النبي(ص).

وها نحن اليوم نعيش دورة جديدة من التحريف على يد بعض من يدّعي الحرص على الشريعة، فصارت تطبع بعض الكتب دون البعض، وتفاسير دون التفاسير، وكتب فقه دون غيرها، وتنشر بشكل يميت ذكر غيرها عند الناس، وصارت بعض الكتب تطبع بتحريف صريح للروايات[136].

في مقابل ذلك، كان علي(ع) يحدّث الناس بحديث النبي(ص) كل يوم في جامع الكوفة، ويفسر الآيات[137]. وجرى على نهجه أولاده الطاهرون(ع) في كل موقف وقفوه. فاستغل الحسن(ع) صلحه مع معاوية لنشر التفسير الصحيح والحديث الصحيح في سنين الأمن الذي شرطها على معاوية[138]؛ واستغل الحسين(ع) هذه الأيام مع أخيه وكذا بعدها وإلى اليوم الأخير في حياته يوم عاشوراء وهو يذكر المسلمين بنفسه الزكية وأبيه(ع) وأخيه(ع) وموقعهم في الإسلام استناداً إلى الكتاب والسنّة[139].

ثم كان ما كان من موقف الإمام السجاد(ع) في قصر يزيد اللعين بعد قتل أبيه الحسين(ع) حيث ذكّر الناس بموقع أهل البيت(ع) مع أنه ما كان بينه وبين القتل بالسيف سوى أمر يزيد[140].

نفس الشيء جرى للأئمة الآخرين(ع) في كل المواقف التي وقفوها مع الخلفاء والرعية مبينين وموضحين حدود الله وأحكام القرآن والسنة بما استطاعوا من وعظ وإرشاد ودعاء وخطاب ودرس وشعر وبكل ما آتاهم الله من إمكانيات وما أتاحت لهم الظروف، حتى آوى إليهم من آوى ورجع إليهم من رجع من المسلمين بعد حيرتهم ومسيرتهم بعيداً عن نور آل محمد(ص)[141].

9- التعامل مع الخصوم

عندما خطب خطيب الأنصار في سقيفة بني ساعدة يدعو إلى بيعة سعد بن عبادة الخزرجي وكان مريضاً جالساً يتكلم بالنيابة عنه المتكلمون، رفض عمر بن الخطاب ذلك ودعا إلى بيعة أبي بكر (وذلك بعد أن دعا أبو بكر أولاً إلى بيعة أحد الرجلين: عمر أو أبي عبيدة). فلما احتد القوم تحوّل النقاش إلى شتم وقذف حيث قال عمر ومن معه بعد أن ديس سعد بن عبادة[142]: "أقتلوه قتله الله"! وبعد أن فُضّ اجتماع السقيفة جاء عمر وأبو عبيدة ومن بايع أبا بكر من الأنصار يزفون الخليفة إلى مسجد رسول الله(ص) كما تُزف العروس على حد تعبير المؤرخين[143]، مع أن النبي(ص) كان لا يزال مسجّىً بين أهله وهم يغسلونه ويجهزونه للصلاة والدفن[144]، فكان القوم كلما مروا برجل في سكك المدينة سحبوا يده ومسحوها على يد أبي بكر شاء الرجل أم أبى، والويل لمن أبى[145].

وبعد دفن النبي، إمتنع علي وأصحابه عن البيعة وجلس مع جماعة منهم في بيت فاطمة(ع)، فذهب عمر وخالد بن الوليد وجماعة معهم إلى الدار، وجاؤوا بالحطب وهددوا من بالدار بالتحريق إن لم يخرجوا ويبايعوا الخليفة. فلما قيل لعمر إن في البيت فاطمة، قال: "وإن!" ثم خرج إليهم الزبير بسيفه فكسروه[146]، وبعدها جيء به وبعلي(ع) إلى أبي بكر مقادين "كما يقاد البعير" على حد تعبير معاوية في رسالته إلى علي(ع) الأمر الذي لم يكذبه علي(ع) في جوابه[147].

وبعد ذلك بسنين أخذ خلفاء بني أمية والعباس يأخذون البيعة لأولادهم وهم يهزون السيوف بوجه المسلمين تهديداً لهم[148].

وأما الانتقام عند المقدرة فحدّث ولا حرج. فلقد ضرب معاوية بن أبي سفيان، الذي يترضى عنه الكثير من المسلمين إلى يومنا هذا[149]، المثل الأعلى لمن سيأتي بعده في معاملة الخصوم بدون رادع من ضمير أو عرف عربي، وإلا فإن الرجل ليس عنده من الدين شيء لكي يمنعه من ذلك. فقد استعمل السم والسيف والهدم في قتل شيعة علي(ع)، كما دفن بعضاً منهم وهم أحياء بعد أن عرض عليهم البراءة من دين علي(ع) وكأن دين علي(ع) هو غير دين المسلمين، (ولكنه غير دينه قطعاً). ومنهم من سمل أعينهم ومنهم من قطع ألسنتهم ومنهم من صلبهم على جذوع النخل – وكل ذلك ذكره له الإمام الحسين(ع) مما يضيف إليه الشهادة التاريخية من معاصره المعصوم(ع)[150].

وعندما ثار أهل مكة والمدينة على اللعين يزيد بن معاوية أرسل إليهم الجيوش فاستباحت المدينة ثلاثة أيام واستبيحت معها الأموال والدماء والأعراض[151]. وعندما هجم جيش عبد الملك بن مروان على مكة أيام ابن الزبير لم يتوقف جيشه، وهو جيش الخلافة الإسلامية، بقيادة الحصين بن النمير ثم أيام عبد الملك بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي عن ضرب الكعبة المعظمة بالمنجنيق، وهو مدفعية تلك الأيام، حتى أُحرقت أستارها وقوائمها التي كانت من الخشب[152]، فهل نعجب إذا تجرأ بعض الحكام هذه الأيام على قصف أضرحة آل محمد(ص) كما فعل اللعين في عراق اليوم[153].

وبين هذا وذاك، صار خلفاء المسلمين يملأون الخزائن بقتلى خصومهم كما فعل أبو جعفر المنصور العباسي بالعلويين[154]؛ وصاروا يجلسون رعيتهم على الخوازيق كما اشتهر عن العثمانيين[155]؛ وصاروا يذبحون من المسلمين من شاؤوا ويسبون نساء وذرية من شاؤوا دونما خوف من حساب أو عقاب من أمة سحب منها حقها في الاعتراض منذ العصر الأول في القرن الأول (خير القرون!).

ماذا نجد في الجهة المقابلة، جهة علي وآل علي(ع). يعجب المرء حقاً لهذه القلوب الكبيرة وهذه النفوس العالية وهذه القدرة على العفو. فعندما ظفر أمير المؤمنين(ع) بعائشة بعد أن سقط جملها وتشتت شمل جيشها لم يقل لها سوى: ‹‹يا حميراء! أرسول الله أمركِ بمسيرك هذا؟ ألم يأمركِ أن تقرّي في بيتك؟ ما للنساء وقَود الجيوش؟››[156] ثم نهى عن شتمها وقال ‹‹لأجل عين ألف عين تكرم›› أي لأجل عين محمد(ص) نتجاوز عنك. وقبل ذلك عندما وقف على جثة طلحة بن عبيد الله اشتد به الأسف وقال: ‹‹أمسى والله أبو محمد بهذا المكان غريباً››[157]. بل عندما جيء له بسيف الزبير بعد مقتله لم يتشف به ولم يذكر إلا حسناته قائلاً عن سيف الزبير: ‹‹سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول اللّه... و اللّه ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً ولكن الحين ومصارع السوء››[158]. وجيء له بمروان بن الحكم، وقد كان رفض بيعته بعد مقتل عثمان، فعرض عليه البيعة، فقال أمير المؤمنين: ‹‹لا حاجة لي في بيعته، إنها كف يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بسبته›› ولم يكرهه على البيعة[159].

بل عندما أخذ أصحابه يسبّون أهل الشام في معارك صفين نهاهم عن ذلك قائلاً: ‹‹كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتمون وتبرأون، ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا ومن أعمالهم كذا وكذا كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله منهم ويرعوي عن الغيّ والعدوان منهم من لهج به، لكان أحب إليّ وخيراً لكم››[160].

وعندما ضربه ابن ملجم عليه اللعنة قال لهم بأن يتركوا له أمره إن لم يستشهد في ضربته، وإلا فليقتلوه ضربة بضربة، ونهاهم عن المثلة به[161]. هذا، مع أن ابن ملجم لم يتألم ولم يتحرّج بل صاح مفتخراً بأنه اشترى السيف بألف وسمّه بألف وأنه لا بد قاتله.

وبعد عليؑ جاء الحسن ريحانة النبيﷺ، فبايع معاوية وصالحه على شروط في صالح المسلمين متجاوزاً عن حقه في البيعة والخلافة، ففعل فعل أبيهؑ ولسان حاله ما قاله أبيهؑ من قبل: ‹‹لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة››[162].

وبعد كل أفاعيل بني أمية، ولا سيما بأبيه وأخوته وأعمامه وبني عمومته في كربلاء ولعنهم جده وعمه وأبيهؑ،[163] سار الإمام السجادؑ بسيرة أجداده وآبائه. فعندما ثار ابن الزبير في الحرم لم يجد مروان بن الحكم إلا دار السجادؑ ملجأ لأهله وأولاده[164]. وهذه أخرى لم يسبق لها نظير.

وبعد ذلك الأئمة الآخرون(ع)، كان الرجل يأتي فيسب أحدهم أو ينال من جده علي بن أبي طالب(ع) فيقابله الإمام المعتدى عليه باللين والسماحة والبشاشة وسعة الصدر، بل بالدعاء والعطاء، كما حدث مراراً مع الإمام موسى بن جعفر الكاظم(ع)، ومنها عرف الناس سر تسميته بالكاظم الغيظ من قبل ربه الذي هو أعلم به[165].

ختاماً، فلم يكن علي وأولاده الطاهرون(ع) إلا صورة مشرقة لرسول الله(ص)، فقد تأسّوا به وبأخلاقه لأنهم بدءاً بعلي(ع) ما كانت سيرتهم إلا نسخة مطابقة لسيرة النبي(ص). وهذا هو السرّ وراء نقل الله علياً(ع) وهو ابن ثلاث سنين من دار أبيه إلى دار النبي(ص) لكي يخرج كما أراده الله ورسوله(ص). فقد صدق فيما قال: ‹‹كنت أتبعه ـ أي النبي(ص)- إتّباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي كل يوم علماً من أخلاقه ويأمرني باتّباعه››[166]. وأما سيرة رسول الله(ص) فقد عرف القاصي والداني أنها كانت الرحمة والرأفة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء:107[167]. ولذلك قال الشاعر واصفاً حال آل محمد(ص) وبني أمية (يذكرهم بعفو النبي(ص) عنهم يوم فتح مكة مع أن الله تعالى أحل له حرامها ساعة للاقتصاص لو أراد):

مَلَكْنا فكانَ العَفْوُ مِنّا سَجيّةً ... فلمّا مَلَكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أبطَحُ
وحَلّلْتُمُ قَتْلَ الأُسارى وطالما ... غَدَوْنا على الأَسْرى نَعفُّ ونصفَحُ
فَحَسْبُكُمُ هذا التَّفاوُتُ بيننا ... وكُلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَنضَحُ

10- تطوير الأمة علمياً في المجالات المختلفة

لئن ادّعى بعض المؤرخين والعلماء ومتعصبي المذاهب ريادة في الفقه والعلم الديني لغير أئمة أهل البيت(ع) فإنهم لا يستطيعون ادعاء شيء لهم في العلوم الدنيوية سواء ما كان منها أساسياً في العلم الديني كاللغة والكلام والفلسفة أو ما كان بعيداً عنه كالطب والفلك والهندسة والكيمياء. فلم يحدث المؤرخون بشيء عن الخلفاء الذين سبقوا علياً(ع) في هذه العلوم، وكذلك خلفاء بني أمية ومعظم خلفاء بني العباس. وحتى من ذكروا أنه كان مهتماً بالعلوم الطبيعية منهم كهارون الرشيد والمأمون وبعض المتأخرين، فإن ذلك كان مقتصراً على التشجيع على ذلك، وهو حسن ومشكور ولا شك. ولكن الحال مختلف مع علي وأولاده الطاهرين(ع) لأنهم كانوا حملة علم النبي(ص) الذي حباه الله بعلم الأولين والآخرين، فحاز الأئمة(ع) منه على ما لم يحزه غيرهم، ليس رغبة من النبي(ص) بالعلم لهم دور عن سائر المسلمين ولكن اتباعاً لأمر الله الذي خلق هؤلاء الإثني عشر لإمامة الخلق وخلافة خاتم النبيين(ص) على شريعته الخاتمة.

ففي حين حدثنا التاريخ أن الشيخين أبا بكر وعمر صرّحا بجهلهما لمعاني كلمات عربية في القرآن[168]، فإنه حدثنا أن علياً(ع) أسس علم العربية بأمره تلميذه أبي الأسود الدؤلي بوضع أصول العربية حفاظاً على لغة القرآن من الاندثار بعد اندماج العرب بالأعاجم، حيث قال له: «الكلام إسم وفعل وحرف» ثم قال له بعد شيء من الشرح: «أُنحُ هذا النحو» أي هذا المنهج. ومن ذلك كلمة النحو التي يستعملها العرب أجمعون[169]. وفي حين لم يتكلم

الخلفاء الثلاثة بشيء كثير من خطب ومواعظ، تحدث أمير المؤمنين(ع) بما دوّخ العقول وحَيّر القلوب من على منبر الكوفة؛ بل قبل ذلك في محاججاته وفتاواه أيام أسلافه. وهذا كتاب نهج البلاغة الذي جمع الشريف الرضي(رض) فيه بعض خطبه(ع) وكلماته ورسائله فكان نهجاً للبلاغة حقاً. ومن قرأه آمن بقول من قال: «إن كلامه عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»[170].

وجاء بعده حفيده السجاد(ع) فخاطب الأمة بأدعيته المنتشرة في الصحيفة السجادية، كما خاطبها من قبل جده وعمه وأبوه وقبلهم رسول الله(ص). ونظرة واحدة للصحيفة السجادية تكفي لمعرفة ليس فقط المستوى الممتنع عن الوصول إليه الذي حباه الله لهذا النفر الكريم، بل لمعرفة كيف استعمل السجاد(ع) الدعاء لتنبيه الأمة من غفلتها وربطها بربها من جانب وتنبيهها إلى حقيقة الخلفاء الراشدين الحقيقيين من جانب آخر. ثم هي بعد، دفعاً للأمة كي ترتقي في الخلق والروحانية مما يمكّنها من قيادة العالم الذي ينتظر مثل هذا الخُلُق ومثل هذه الشفافية[171].

وفي مجالات المنطق والفلسفة تضمنت خطب علي(ع) وأولاده الكثير من الأبحاث الفلسفية، بل تضمنت أسس الفلسفة الإسلامية[172]، كما تضمنت أساس الأصول العقيدية المنزهة عن التحريف والتفريط والإفراط[173]. وهذا كله تربية للأمة وترقية لعلومها وفنونها.

وفي العلوم الطبيعية اهتم الأئمة(ع) بعلم الأبدان كما سمّوها[174]. ففي مجال الطب وجهوا الناس إلى الفوائد الطبية للأغذية والأعشاب والنباتات، وكذا فوائد الأنظمة الغذائية الخاصة والصيام وغير ذلك، حتى وصلتنا منها مجموعة

كبيرة طبعت في عدة كتب كطب الأئمة[175] وطب الإمام الصادق(ع)[176] والرسالة الذهبية للإمام الرضا(ع) في الطب والوقاية[177]؛ وللإمام جعفر الصادق(ع) رسالة في التشريح ووظائف الأعضاء مطبوعة تحت اسم "توحيد المفضل" شرح فيها شكل الأعضاء والأجهزة الداخلية والخارجية والحواس، والحكمة من أشكالها، وشرح وظائفها[178].

وأما في مجال تطوير الصناعة فقد كان الإمام الصادق(ع) سباقاً إلى محاولة تجاوز تحديدات الموجود من الوسائل. فقد حدثنا التاريخ أنه طلب من جابر بن حيان، عالم الكيمياء المعروف، صناعة مادة لا تحترق كي تصنع منها أغلفة الكتب، حفاظاً على الثروات العلمية من الضياع بالحرق، وطلب منه صناعة أحبار ومواد مختلفة. بل يبدو أن جلّ علم جابر ومخترعاته كانت بتعليم الصادق(ع) لأن جابراً كان يكثر في كتاباته العلمية من قول "حدثني أو أمرني سيدي الصادق" أو شيء من هذا القبيل تبياناً لفضل إمامه(ع) في ذلك.[179]

وكل ذلك من ضمن ما أسسه الصادق(ع) من أسس المنهج التجريبي الذي بنى عليه الأوروبيون بعد ذلك، ثم تضامنوا هم والمسلمون في إخفاء دور الصادق(ع)[180].

ولا شك في أن الأئمة(ع) لو بسط لهم الأمر لتقدم المسلمون في العلوم الطبيعية تقدماً مستمراً وكبيراً ولتقدمت معهم الإنسانية ولوصلت إلى المكتشفات التي وصلتها، في القرون القليلة الماضية ولا سيما قرننا الحالي، قبل ذلك بكثير، ولكن بدون ما كان منها مدمراً ومخرباً وبدون استغلال الإنسان

لأخيه الإنسان وهو الحال المعروف من شركات الصناعة على اختلافها والحكومات المرتبطة بها.

11- إيجاد الحلول للمشاكل المستحدثة في الأمة

علاوة على ما ذكرناه أعلاه من اهتمام الأئمة(ع) بتطوير العلوم والتشجيع والتوجيه والتعليم في طريق مكتشفات جديدة تنهض بالبشرية وتسهل لها حياتها، حدثنا التاريخ أنهم كانوا لا يتوانون عن استعمال ما حباهم الله به العلوم والمواهب من أجل إيجاد الحلول لمشاكل تستحدث في حياة الأمة. فقد روي أن الرومان أرادوا استغلال اعتماد المسلمين عليهم في المسكوكات النقدية وذلك في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. والقصة باختصار هي أن الإمام الباقر(ع)، وضع خطة اقتصادية لتخليص المسلمين من هذا التسلط الروماني عليهم، والذي وصل إلى حد تهديد ملك الروم أن يكتب شتم النبي محمد(ص) على العملة لتكون ضربة عالمية للإسلام والمسلمين، فلم يجد عبد الملك غير آل محمد(ص) وإمام زمانهم في وقته الباقر(ع) لحل المشكلة، فقام الإمام(ع) برسم الخطة التي تقضي بسك العملة، حسب مواصفات الوزن والسبيكة والقياسات التي علمها(ع) للعمال، وكتابة سورة التوحيد المباركة على وجه واسم النبي(ص) على وجه آخر مع اسم البلد وتاريخ السكة. وهكذا صار المسلمون يسكّون نقودهم بأيديهم[181]. (وأنبه هنا إلى أن الإمام(ع) قام بذلك في عهد واحد من أشد المعادين له ولآبائه وممن كان يسير غير متوان على ما سنّه معاوية

من شتم جده علي(ع) من على المنابر، ولكن مصلحة المسلمين مقدمة عند الأئمة من آل محمد(ص) على مصلحتهم الشخصية وثاراتهم).

الخلاصة في دور أهل البيت(ع)

وهكذا، رأينا أن أئمة أهل البيت(ع) لم يكونوا كغيرهم من خلفاء الأمة وحكامها وملوكها وأمرائها. بل يمكن للمرء أن يقول أن هؤلاء كانوا في واد وأولئك في واد آخر، ولم يقترب هؤلاء من أولئك مطلقاً، على أن بعض هؤلاء الآخرين استطاع أن يجسد بعض مفاهيم الإسلام مما جعل سيرته سيرة مقبولة بلحاظ محدودية قابلياته بالمقارنة مع أئمة الهدى المعصومين.

ولو أردت أن أتوسع أكثر مما أوردت لتوضحت الصورة أكثر فأكثر، ولكان البون بين الطرفين بدا واسعاً أكثر بكثير مما قد استطاع الوارد أعلاه أن يبين[182].

على أية حال، يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

(أولاً) أن أئمة أهل البيت(ع) كانوا سيسيرون مع المسلمين سيرة مختلفة عن السيرة التي خبرها المسلمون في تاريخهم الطويل مع الخلفاء والحكام الذين تربعوا على عرش الحكم. وكانت سيرة أهل البيت(ع) ستبتعد كثيراً جداً عن سيرة الغالبية العظمى من خلفاء المسلمين وحكامهم.

(ثانياً) بسبب هذا الاختلاف الكبير بين السيرتين يمكننا أن نقول أن تغييراً في النتائج التي وصل إليها المسلمون كان لا بد سيحصل لو اجتمعت الأمة على الأئمة من آل محمد(ص).

ولكن، كم كان سيكون هذا التغيير؟

بالطبع، ليس ممكناً التكهن بحجم التغيير على وجه دقيق، فالله وحده هو العالم بذلك، لا سيما وأن العوامل المؤثرة في ذلك متعددة. إلا أننا نستطيع القول بأن التغيير كان سيكون كبيراً جداً، ليس فقط لهذا الاختلاف بين سيرة الحكام والخلفاء التي نقلها التاريخ والسيرة المتوقعة لأهل البيت(ع) بناء على ما ذكرنا من سيرتهم عموماً، ولكن أيضاً لما يلي:

1. إننا نتوقع أن الأمة لو كانت قد اجتمعت على أهل البيت(ع) فإنهم كانوا سيظهرون صوراً أكثر روعة بتجسيدها للإسلام في واقع المسلمين، وذلك لأنهم كانوا سيتعرضون لقضايا المسلمين في تفاصيلها اليومية، وليس كما حصل.

2. إن التأثير السلبي لمنع أهل البيت(ع) من استلام مسؤولياتهم الإلهية لم يكن بسيطاً بل كان مركباً، حيث كان التأثير السلبي يزداد حدة بتراكم الانحرافات وتعمقها كلما مر زمان أطول وكلما جاءت دولة جديدة وكلما تربع حكام جدد على سدة الحكم. فلو كان أهل البيت(ع) قد استلموا مسؤولياتهم كما أراد الله تعالى لما سمحوا بأي انحراف أن يمتد ويستفحل بل كانوا سيعالجونه بسرعة وبحزم[183].

3. إن الخلل الذي دبّ في الأمة جعل أفراد الأمة يسيرون بخط تنازلي بعيداً عن الإسلام نصاً وروحاً. وكان غياب القدوة المعصومة السبب الأساسي في ذلك، لأن القدوة المتمثلة في شخصية الرسول(ص) لم تكن تستطيع وحدها إقناع الأمة بوجوب الإقتداء بها ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب:21، لأن الجواب كان سيأتيها دائماً من قبل الحكام وفقهاء الحكام بأن النبي(ص) له وضعه الخاص وأنه من المستحيل الاقتداء به. هذا ناهيك عن فكرة الجبر التي نشروها بين الأمة كي يبرروا جرائمهم وانحرافاتهم وتجاوزاتهم[184]. أما لو كانت القدوة الصالحة قد استمرت بعد وفاة النبي(ص) ولمدة قرون هي عمر الأئمة الإثني عشر(ع) لكان تأسس في روح الأمة وعقلها إمكانية الإقتداء من خلال هذه الشخصيات المعصومة، وهذا كان سينقل أفراد الأمة إلى حالة مختلفة تماماً من الالتصاق بالمنهج الإلهي في جانبيه التشريعي العملي والروحاني الأخلاقي. وكان هذا سيشكل أقوى حصانة ضد قبول الانحرافات، وأيضاً كان سيشكل أعظم دعاية للإسلام عند شعوب الأراضي المفتوحة بما يقلص المساحة التي كان سيتحرك فيها أعداء الإسلام.

4. بعيداً عن الفرق بين سيرتي أهل البيت(ع) وغيرهم وتأثيرها على الأحداث، هناك العامل الإلهي الذي كان سيكون في صالح المسلمين على وجه مختلف فيما لو أجمعت الأمة على آل محمد(ص). قال الله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الأعراف:96، وهي واضحة في أن الله كان سيفتح خزائن بركاته وعطاياه ونعمه الجزيلة لو أن الأمة لم تدر ظهرها

لأوليائها الطاهرين(ع). في حين أنه عامل الأمة بعكس ذلك بسبب موقفها من خلفاء النبي(ص) الشرعيين. وقال ذلك الرجل الصادق المصدق أبو ذر الغفاري(رض) وهو يعاتب الأمة على تركها أئمة الهدى(ع): "أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها: لو قدّمتم من قدّم الله لما عال فرض من فروض الله ولا طاش سهم في سبيل الله"[185] وهو واضح في أن الله تعالى قد منع الأمة الإسلامية الكثير من تسديداته وألطافه الخفية التي كانت ستحمي الأمة من ظلمها لنفسها وأيضاً تنصرها على أعدائها.

بل لقد أنذرت الزهراء(ع) الأمة بهذا المصير الأسود عندما خطبت في مسجد أبيها(ص) خطبتها الشهيرة حيث قالت: ‹‹أما والله لقد لقحت – أي الفتنة – فنَظِرَةٌ ريثما تُنتج – أي انتظروا قليلاً حتى ترون نتائج الانحراف..›› وقالت (ع): ‹‹لتجدُنّ والله محمله ثقيلاً، وغبّه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء وبان وراءه الضراء وبدا لكم من الله ما لم تكونوا تحتسبون وخسر هنالك المبطلون›› وفي رواية: ‹‹وسيعلم التالون – أي الذين سيأتون بعد عصرها(ع) وإلى اليوم – غِبّ ما أسس الأولون›› أي مغبّة ما أسسوه من الانحراف عن أهل البيت(ع)[186].

لذلك، يمكننا القول بأن أئمة أهل البيت(ع) كانوا سيمنعون ما حدث من انحراف في الأمة وكانوا سينقلون الأمة من موقع إلى موقع أقوى منه بشكل تصاعدي كانت البشرية جمعاء ستقطف ثماره، ليس فقط بالإسلام الذي كانت ستنعم به، وإنما أيضاً بالتقدم في العلوم كلها بما فيه مصلحة الإنسان لا ضرره وخراب دياره كما حصل ويحصل الآن.

[61] راجع حديث الإثني عشر خليفة أو أميراً في الملحق.

[62] وقال الإمام الصادق(ع): «نحن تراجمة أمر الله نحن قوم معصومون» الكافي ج2/ص206.

[63] "التفسير الكبير" للفخر الرازي ج12 ص26، وتفسير "الكشاف" للزمخشري ج1 ص649، و"الدر المنثور، للسيوطي ج2 ص294، وتفسير ابن أبي حاتم ج4 ص1162، وأغلبية المحدثين كالنسائي وابن عساكر والطبراني حتى زعم العلامة الآلوسي أن "غالب الأخباريين على أنّ هذه الاية نزلت في علي كرّم الله وجهه" أنظر تفسيره "روح المعاني" ج6 ص168.

[64] أنظر حديث الثقلين ومصادره في الملحق.

[65] حديث المنزلة بلغ أعلى درجات الصحة وهي التواتر، فقد رواه أصحاب الكتب الحديثية وفي مقدمتهم محمد بن إسماعيل البخاري في "الجامع الصحيح" ج3 ص6، والإمام أحمد في المسند الحديث 5972، وإبن عساكر في "تاريخ مدينة دمشق" ج13 ص150 و ج18 ص138، والإمام مسلم في صحيح مسلم ج7 ص120، وابن ماجة في سننه ج1 ص45 رواية 121، والترمذي في سننه ج5 ص303 رواية 3813 و3814، والنسائي في فضائله ص13 وغيرهم.

[66] راجع كتابي "العودة إلى الأصل" ج1 الفصل الخامس وفيه تفصيل آيات الكتاب العزيز في آل محمد(ص) والفصل السادس وفيه الأحاديث المهمة والأقل أهمية في فضل آل محمد(ص) ودورهم، إضافة إلى الفصل السابع حول الزهراء(ع) والفصل الثامن المخصص لحديث الغدير. وبالتأكيد هناك كتب العلماء الأعلام والباحثون الكرام الذين كتبوا في هذا الموضوع.

[67] أقوال النبي(ص) هذه جزء من خطبة حديث الغدير فراجعه في الملحق أو في التقديم الأوسع له في الفصل الثامن من كتابي "العودة إلى الأصل" أو الأبحاث الموسعة في موضوع الغدير.

[68] رواه ابن حبان في صحيحه ج 2 ص185، وابن ماجة في سننه ج1 ص52 وغيرهما.

[69] رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين ج2 ص343، والطبراني في المعجم الأوسط الحديث 18 من الأربعين الخامسة والعشرين، وابن حجر في الصواعق ص151، وأخرجه ابن كثير في تفسيره ج4 ص123، والسيوطي في الجامع الصغير ج3 ص334، وغيرهم.

[70] "الصواعق المحرقة" لابن حجر الهيتمي باب 11 ص89

[71] أنظر آخر البحث حيث ذكرنا آية المودة.

[72] تفسير الطبري ج13 ص108، وهناك روايات، كما في مسند الإمام أحمد ج1ص126حديث 1041 أو المعجم الأوسط للطبراني ج2 ص94 حديث 1361، لا تسمي الهادي وإنما تدعي أن النبي(ص) قال ((والهاد رجل من بني هاشم))! فكأنما بهذه الطريقة سنحتار من هو الهاشمي الذي يهدي بعد النبي(ص)!

[73] راجع ما كتب من سيرتهم مع أهليهم ومواليهم وخدمهم وأصحابهم والناس أجمعين لتجد فيها النفوس العالية الطاهرة التي لا تعرف الحقد أو الحسد أو اللؤم أو الضغينة أو التشفي، بل هو السمو عن كل ذلك والكرم والبساطة والحنان والعطف وكل صفة جميلة في الناس، ومن ذلك في كتابي "أنزلوهم بأحسن منازل القرآن" (مطبوع وعلى موقعي على شبكة الانترنت)، لا سيما الفصل التاسع منزلة التّدبّر والفصل العاشر منزلة العمل ففيهما نماذج يسيرة جداً من تلكم السيرة العطرة لأولئك الطاهرين(ع).

[74] وهذا الحديث المشهور يعني هو الآخر أن علياً(ع) هو الإمام بعد النبي(ص) لأنه إن كان هو المدخل إلى علم النبي(ص) فلا بد أن يكون المرجع بعده(ص) – هذا إن كنا لا نزال نفهم اللغة العربية البسيطة المباشرة!

[75] هذا أثبته جميع من روى قصة الشورى دون استثناء فلا نقاش فيه، ويمكن مراجعة كتب التاريخ قديمها وحديثها. وقد أجملت الشورى والمآخذ الواضحة عليها في كتابي "العودة إلى الأصل" ج1 الفصل 10 فليراجع.

[76] لا شك في أن الإمام علي(ع) سمع بأحاديث النبي(ص) التي وصلت إلى جميع المسلمين والتي تقول بأنه أعلم الصحابة وأعلم الأمة وبأنه باب مدينة العلم النبوي وبأنه المرجع العلمي للجميع. وقد أكد(ع) هذه المعرفة والنتيجة بأقوال عديدة رويت في الكثير من الروايات، منها قوله(ع): ((يا أخا بني عامر سلني عمّا قال الله ورسوله، فإنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله)) ابن سعد في الطبقات ج6 ص167، وقوله: ((لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأمة أحد، ولا يُسَوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفئ الغالي وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة)) نهج البلاغة ج1 الخطبة 2، وقوله: ((أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم؛ بنا يستعطى الهدى، وبنا يستجلى العمى)) نهج البلاغة ج1 الخطبة 144، وغيرها الكثير.

[77] يكفي في ذلك قوله(ع): ((اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم في دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك)) نهج البلاغة الخطبة 131؛ ولا شك في أن دخوله(ع) في الشورى عند انتهاء عهد عمر كان أول دخول في الترشيح للحكم بعد أن حكم غيره وبانت حقيقة ذلك الحكم بحسناته وسيئاته، وعليه فإن معالم الدين الغائبة والإصلاح المطلوب والحدود المعطلة يعني أنه(ع) يتهم عهد عمر على الأقل (إن لم يكن عهد أبي بكر أيضاً) بكل ذلك، وبالتالي فإنه(ع) يعرض بسيرة من قبله، فلا تكون مقبولة عنده(ع).

[78] قال ابن القيم في إعلام الموقعين: "إن أصول الأحكام عند الإمام أحمد خمسة: الأول النص والثاني فتوى الصحابة، وإن الأحناف والحنابلة قد ذهبوا إلى تخصيص كتاب الله بعمل الصحابي، لأن الصحابي العالم لا يترك العمل بعموم الكتاب إلا لدليل، فيكون عمله على خلاف عموم الكتاب دليلاً على التخصيص وقوله بمنزلة عمله" عن "المدخل إلى أصول الفقه" معروف الدواليبي ص217؛ ولا أدري إن أراد بصفة "العالم" بعد كلمة "الصحابي" التخلص من نتيجة الكلام أن كل صحابي حجة وهو يعلم أن بعضهم لم يكونوا أهل علم (دع عنك درجة التقوى)، أو أن صفة "العالم" هي لازمة لكل "صحابي" حتى ولو كان جلس مع النبي(ص) ساعة واحدة مثلاً. على أية حال، الحكم واضح في أن مخالفة الصحابي لكتاب الله حجة وأن عمله وقوله أيضاً مقدم على الكتاب – هذا مع أنه روي عن النبي(ص) الأمر بضرب كل حديث يخالف القرآن عرض الحائط، ولكن هذا هو التعصب والنتائج التي يوصل إليها.

[79] وهذا الموقف من العلماء من فقهاء ومؤرخين ومحدثين وباحثين يوافق قول الإمام علي(ع) في عدم حرصه على المنصب ويرد قول من اتهمه(ع) من الصحابة في ذلك – قال(ع): ((وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يا بْنَ أبِي طَالِب عَلَى هذَا الأمْرِ لَحَرِيص، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ أحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْش وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي؛ ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ)) نهج البلاغة ج1 الخطبة 172.

[80] راجع "الإمامة والسياسة" ج1 ص133؛ أيضاً "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 73، وتمام كلامه(ع) في هذه النقطة: ((لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَاسَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لاَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ)) وفيه يتهمهم بالانحراف عنه(ع) على الرغم من علمهم بأحقيته في الخلافة.

[81] الإمامة والسياسة" ج1 ص133

[82] "الإمامة والسياسة" ج1 ص90

[83] من أمثلة فتواه(ع) استجابة لسؤال عمر ما أخرجه الحاكم في المستدرك ج3 ص14 أن عمر جمع الناس فسألهم من أي يوم يُكتب التاريخ، فقال علي(ع): ‹‹من يوم هاجر رسول الله(ص) وترك أرض الشرك›› ففعله عمر. ومن أمثلة فتواه(ع) مبادرة منه دون سؤال أحد ما رواه أبو داوود في سننه ج28 باب المجنون يصيب حداً، بخصوص مجنونة جيء بها إلى عمر بتهمة الزنى، فأشار البعض أن تُرجم، ولكن عليّاً(ع) أرجعها وجاء إلى عمر فقال: ‹‹يا عمر أما علمتَ أن القلم قد رُفع عن

ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يعقل؟›› قال: "بلى"، قال: ‹‹فما بال هذه ترجم؟›› قال: "لا شيء"، قال: "فأرسلها" قال: "فجعل يكبّر".

[84] قد رويت أقوال عمر في حاجته إلى علي(ع) بصيغ مختلفة كقوله "معضلة ولا أبو حسن لها" أو "أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن" أو "اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي"، راجع مقدمة "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد، و تاريخ ابن كثير ج7 ص359، و الإصابة ج2 ص509، والمناقب للإمام أحمد ج1 ص222، وكثيرين غيرهم.

[85] "الاستيعاب" ج3 ص39 وغيره

[86] قاله(ع) لعمر بعدما فكر الأخير في استخدام حلية الكعبة المعظمة في تزويد المقاتلين فقال له(ع): ((إن القرآن أنزل على النبيِّ والاموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها. وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عليه مكاناً، فأقرَّه حيث أَقرَّه الله ورسوله)) فقال له عمر: "لولاك لافتضحنا" وترك الأمر، راجع نهج البلاغة ج4.

[87] يذهب معظم المؤرخين إلى أن الإمام الحسن(ع) إنما صالح معاوية تجنباً لسفك الدماء لا سيما وكلمة جده(ص) لا تزال في أذنه ‹‹إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به فئتين من المسلمين››، ولكن يذهب بعض المؤرخين إلى أنه(ع) إنما صالح مكرهاً بعد تفرق جيشه وخيانة بعض قادته؛ أنظر "صلح الحسن" للشيخ راضي آل ياسين، والفصول 10-15 بالخصوص. ويقطع بعض الباحثين في الحديث بأنه موضوع لعلل فيه، لاسيما كونه مرفوعاً. ويذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن الصلح لم يكن إلا خيراً للمسلمين حيث اشترط الحسن(ع) على معاوية أن يترك شيعة علي(ع) وشأنهم فانتشرت أحاديث النبي(ص) في فضائل أهل البيت(ع) في مناطق كانت مغلقة. (حديث سماحة السيد الحجة سامي البدري حفظه الله إلى بعض الإخوة في بيتي في لندن في شهر آذار سنة 1995).

[88] تفريق عمر في العطاء على أساس الهجرة والسبق، وحتى على لا أساس واضح، من الأمور المعروفة المقطوع بها بحيث أن مدرسة أهل السنة لم تناقش في أصل الفعل ولكنها حاولت تبريره وإيجاد تأصيل شرعي له.

[89] هنا تجد الفارق في التعاطي بين الفريقين، فبينما يجد أهل السنة لعمر المبررات الشرعية لقراراته المخالفة بشكل واضح للكتاب والسنة (من باب الأخذ بالمصالح وسد الذرائع وغيرها من مدارك فقهية صارت لها أدوار أكبر من حدودها في الكتاب والسنة) نجد أتباع أهل البيت(ع) يثبتون المخالفة بسهولة لوضوح ذلك. على أنه ينبغي القول أن لا هذا الفريق ولا ذاك ينطلق في

بعض تحليلاته واستنتاجاته من الموقف العلمي الكامل لأن للخلافات المذهبية العقدية والسياسية أثراً في هذا كله.

[90] هنا نقطة ينبغي الالتفات إليها: إن علياً(ع) يؤمن بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء الأخروي في حين أن عمر لم يكن يريد الاكتفاء بهذا بالنسبة للسابقين بل أراد لهم جزاء دنيوياً معجلاً (قال(ع): ((ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله(ص) يرى أن الفضل له على سواه لصحبته فإن الفضل النير غداً عند الله ثوابه، وأجره على الله))، وهذا هو الفارق بين الإمام المعين الذي تجري الشريعة في آفاقها العليا في دمه وبين غيره.

[91] فقد أمر لها بألفين أكثر من العشرة آلاف لباقي أمهات المؤمنين، راجع "الطبقات الكبرى" لابن سعد ج8 ص67 وغيره. ولكن يمكن القول أن ذلك كان رعاية لحق أبيها أبي بكر عليه حيث كان الاتفاق بينهما أولاً ثم العهد بالخلافة إليه ثانياً هو الذي جاء بعمر إلى الخلافة. ولا يخفى أن السيدة عائشة كانت رئيسة حزب أمهات المؤمنين الذي يضم ابنته حفصة التي كانت الوحيدة من بين أمهات المؤمنين من أرادت الاستجابة لدعوة عائشة إلى الخروج على علي(ع) بعد استخلافه ولولا أن منعها أخوها عبد الله لخرجت (علماً أن اللتين نزل القرآن بتحذيرهما أشد التحذير في سورة التحريم هما السيدتان عائشة وحفصة).

[92] للإطلاع على تفاصيل هذه الحادثة المؤلمة إرجع إلى كتاب "فدك في التاريخ" للسيد محمد باقر الصدر، وغيره ممن كتب. وتجد ملخصاً للموضوع مع بعض المناقشات في كتابي "العودة إلى الأصل" الفصل السابع المخصص للزهراء(ع).

[93] روى إبراهيم الثقفي في "الغارات" ج1 ص75 أن جماعة ذهبوا إليه(ع) فقالوا: "يا أميرالمؤمنين أعطِ هذه الأموال، وفضِّلْ هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخاف خلافه من الناس و فراره" فرد عليهم(ع): «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟! والله لا أفعل ما طلعت شمس وما لاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، فكيف وإنّما هى أموالهم؟»

[94] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج2 ص200 مناقب علي عليه السلام وذكر طرف من أخباره في عدله وزهده

[95] سيرة الأئمة الإثني عشر ج1 ص313 عن أبي إسحق الهمداني

[96] "الكامل في التاريخ" لابن الأثير ج3 ص31 ، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد ج3 ص281

[97] راجع صحيح مسلم ج2 ص177 باب الترغيب في قيام رمضان، ونفسه ص188 باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، وصحيح البخاري ج3 ص45 باب فضل من قام رمضان، ونفسه ج2 ص49 باب تحريض النبي على صلاة الليل. وطبعاً كان لا بد من تبرير

البدعة العمرية، وهكذا كان – فمثلاً قول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان رقم 94 (تجدها في منتقى فتاوى الشيخ الفوزان ج1 ص171) "وأما قول عمر رضي الله عنه: "نعمت البدعة هذه" (رواه البخاري في "صحيحه" ج2 ص252 من حديث عبد الرحمن بن عبد القاري) فالمراد بذلك البدعة اللغوية لا البدعة الشرعية!" أما كيف عرف أن القصد هو اللغوية لا الشرعية فهذا لأنهم قالوا أنه أحيا سنة النبي(ص) والذي يكذبه قول النبي(ص) الوارد في روايات البخاري ومسلم أعلاه؛ حتى لو قبلنا هذا، عندها لا تصبح بدعة، أم أن المصطلحات صارت عرضة للتلاعب بهذا الشكل السمج؟!

[98] راجع هامش 21 في الفصل الأول.

[99] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج12 ص283

[100] سنن النسائي ج3 ص188، ورواها مسلم في صحيحه ج2 ص592 دون الجزء الثاني ((وكل ضلالة في النار)).

[101] عندما أرادوا رد من رفض تبريراتهم بأن "البدعة لغوية لا شرعية" (الهامش 97 أعلاه) فإنهم وجدوا شيئاً آخر اسمه "البدعة النسبية"! شرح الأربعين حديثاً للشيخ ابن العثيمين رقم 28.

[102] موسوعة "الغدير" للعلامة الأميني ج6 ص119 وغيره

[103] "الكامل في التاريخ" لابن الأثير ج3 حوادث سنة 23هـ، و"شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج2 ص57

[104] فقد كان يقول لمن يستأذن للخروج في الغزو: ((لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ويكفيك وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك)) "تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج2 ص679، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر ج39 ص302.

[105] أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" ج3 ص285، وهو من أعجب أحكامه، فقد أمر بنفي الرجل بعد أن حاول إزالة وسامته بحلق شعره ولكنه بدا أجمل، فالرجل لم يفعل شيئاً مطلقاً، وإذا كانت وسامته نعمة من الله تعالى كيف يعاقب عليها؟! وإذا تنزلنا وقلنا أن عمر أراد تحصين المجتمع بعد أن سمع بعض النساء يذكرن نصراً فهل أن التحصين يكون للمدينة المنورة وأهلها مع أنه تحت عينه ولا يكون خارجها وهو بعيد عنه؟

[106] "صلاة العيدين" للقاضي المحاملي ص121، ومسند إسحق بن راهويه المثبت في "المطالب العالية" لابن حجر العسقلاني ج5 ص130

[107] "مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" للموفق الخوارزمي ج2 ص82

[108] كقول علي(ع) ((إنّ الأئمة من قريش غُرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم)) "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 14

[109] كقول الإمام علي بن الحسين(ع): ‹‹فإلى من يفزع خلف هذه الأمة وقد درست أعلام هذه الملّة ودانت الأمة بالفرقة والإختلاف يكفّر بعضهم بعضاً والله تعالى يقول: ﴿ولا تَكونوا كالَّذينَ تَفَرَّقوا واختَلَفوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُم البَيِّنات﴾ فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلا أعدال الكتاب وأبناء أئمة الهدى ومصابيح الدجى الذين احتج الله بهم على عباده ولم يدع الخلق سدى من غير حجة، هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة، وبقية الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً وبرّأهم من الآفات وافترض مودتهم في الكتاب؟›› "الصواعق المحرقة" لابن حجر الهيتمي ص 90، وكقول الإمام المهدي(عج): ‹‹وأنا حجة الله›› البحار ج2 ص90

[110] كما جاء في كلام الإمام علي(ع) هامش 108 أعلاه وغيره مما روي عنه(ع)، أو في قول أولاده(ع) كقول ولده الحسن(ع) يعنف معاوية على طلبه الحكم: ((ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الاسلام، أمسكنا عن منازعتهم، مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمون به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده)) "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج4 ص12.

[111] ومما قاله(ص) في ذلك اليوم المشهود: ‹‹أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟›› قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ‹‹إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه›› يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة أربع مرات، ثم قال: ‹‹اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب››؛ راجع الملحق لنص ومصادر حديث وبيعة الغدير.

[112] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج11 ص9، وفيه نص آخر بعد ألحوا عليه بالبيعة بعد مقتل عثمان قائلين "ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك" قوله(ع): ((إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضا المسلمين وفى ملأ وجماعة)) وتكمل الرواية "فقام والناس حوله فدخل المسجد وانثال عليه المسلمون فبايعوه وفيهم طلحة والزبير" تاريخ الطبري ج5 ص152.

[113] "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 3 المعروفة بالشقشقية

[114] وهي كلمة لطالما حاول المنحرفون عن آل محمد(ص) استخدامها لإثبات أن علياً(ع) غير منصوص عليه، مع أنها في سياق لا يدل على ذلك مطلقاً. قال(ع): ((دَعُوني وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فإنَّا

مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْـمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً!)) يضع شروط حكمه أمامهم قبل أن يبايعوه، منبهاً إياهم أن الأمور صارت مشوشة والطريق غير واضح للناس، وعليه فإنهم سيعترضون ويعتبون لأنهم لا يفهمون لا ما وصلت إليه الحال ولا كيفية معالجته(ع) للأمور؛ فإذاً، ربما سيجدون أنه لو بقي لا يقودهم أفضل لما تريده أنفسهم ورؤاهم المشوشة، ولكنه لن يترك الساحة، بل سيكون وزيراً – كما كان في السابق – وعندها فإن أمره(ع) لن يكون ماضياً إلا بإمضاء الخليفة الحاكم الذي ربما مشى معهم كما يحبون (حتى ولو كانت النتيجة وبالاً عليهم، كما حصل قبله). وأما قوله ((ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم)) فهذه كلمة تضيء الطريق لمعرفة هذا العبد الصالح الصادق، فهو سيكون محافظاً على عهد الطاعة للخليفة الذي سيبايعونه إلى الدرجة التي هي أعلى من درجة طاعتهم، حتى مع معرفته أنه أقل منه علماً وحكمة وتقوى وقدرة – هذا الحال الذي عرفه ألد أعدائه بحيث تراهم لا يضعون احتمالاً ولو صغيراً لإمكانية أن يغدر بهم أو يتحايل عليهم، سلام الله عليه.

[115] وهو الحال الذي أشار إليه الإمام(ع) في خطبته الشقشقية بالقول: ((فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ (أي مزدحمين كشعر رأس الضبع)، يَنْثَالُونَ (أي يأتون بكثرة) عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِب، حَتَّى لَقَدْ وُطِِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ (أي جرح أو خدش جانباه)، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ (أي كما تجتمع مجموعة الأغنام) ...)) "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 3.

[116] "صلح الحسن" لراضي آل ياسين، لا سيما الفصول 2-5

[117] كقول الحسن(ع) الذي أوردت فقرة منه في هامش 110، وتمام الرسالة إلى الباغي معاوية هي: ((من الحسن بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فإن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين، ومنّة للمؤمنين، توفاه الله غير مقصر ولا وان، بعد أن أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، وخص قريشاً خاصة، فقال له ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾، فلما توفي تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن بيته وأسرته وأولياؤه لا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش، وأن الحجة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد، فأنعمت لهم، وسلمت إليهم، ثم حاججنا قريشاً بمثل ما حاجّت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنتصاف والإحتجاج.

فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف باعدونا واستولوا بالإجماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت عليهم لنا، فالموعد الله وهو الولي النصير.

ولقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده.

فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكتابه والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار.

وبالله لتلقيّن عما قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد.

إن علياً لما مضى لسبيله ـ رحمة الله عليه يوم قبض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يبعث حياً ـ ولاني المسلمون الأمر بعده فأسأل الله أن لا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة.

وإنما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله عز وجل في أمرك ، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح للمسلمين.

فدع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، وادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك، ليطفئ الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين، وإن أبيت إلا التمادي في غيك سرت عليك بالمسلمين، فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)) "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج16 ص22.

[118] مقتل الخوارزمي ج1 ص193

[119] تاريخ الطبري ج6 ص243

[120] "بلاغات النساء" لابن طيفور، و"الإحتجاج" للطبرسي، و"شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج16 من شرحه للكتاب 45 من كتب علي(ع)، وإشارات إلى الخطبة في كتب أخرى مثل "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، و "لسان العرب" لإبن منظور، و "أعلام النساء" لعمر كحالة؛ راجع خطبتها(ع) الكاملة وتعليقاتي عليها في ملحق كتابي "العودة إلى الأصل".

[121] تاريخ الطبري ج5 ص37

[122] سيرة الأئمة الإثني عشر ج1 ص307

[123] هذا ما قاله معاوية لسودة بنت عمارة الهمدانية رضوان الله عليها بعد أن حكت له كيف تصرف أمير المؤمنين(ع) عندما شكته من عامله الذي أخذ حقها، راجعه في "بلاغات النساء" لابن طيفور ص31 فإن فيه سيرة الإمام علي(ع) مع الرعية، وفيه تحسر شيعته على فقد إمامهم(ع)، حيث قالت فيما قالت:

صلى الإلهُ على جسم تضمنه * قبرٌ فأصبح فيه العدلُ مدفونا
قد حالفَ الحقَّ لا يبغي به بدلاً * فصار بالحقِّ والايمانِ مقرونا

[124] "الإمامة والسياسة" ج1 ص35

[125] يمكن تلخيص موقف فقهاء أهل السنة من الحكام بأن الحاكم طالما تمكن من التربع على السلطة فإن طاعته واجبة بغض النظر عن كيفية وصوله إلى السلطة، حتى وإن كان ذلك عبر سفك الدماء وقتل الأبرياء. أما الخروج عليه فممنوع شرعاً إلا إذا جاء بكفر بواح، بمعنى أن يكفر بأصول الدين (مثلاً لا يؤمن بالمعاد) أو يعلن عدم إيمانه بالضروريات (مثلاً لا يصلي ويقول أن الصلاة غير واجبة)؛ وحتى هذه، لا يمكن الخروج عليه إذا أدى إلى فتنة، وبما أن الفتنة – حسب رأيهم – عادة ما تكون أشد من ظلم الحاكم فإنه يجب عدم الخروج عليه، بل الاكتفاء بالنصيحة، فإن رفضها أو كانت غير ممكنة عندها الاكتفاء بالدعاء، بل حتى الدعاء لا يجوز أحياناً بل يكون الدعاء لهم بالهداية لا عليهم! قال صاحب العقيدة الطحاوية: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة" تجد هذه الآراء الصريحة ومناقشتها في كتابي "العودة إلى الأصل" ج2 الفصل 4 الحكم.

[126] فقد كتب إلى ولاته في الأمصار: "أنظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله" "الجامع الصحيح" للبخاري كتاب العلم، ومصادر أخرى في "أضواء على السنة المحمدية" لمحمود أبي رية ص260.

[127] يعد عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشدي الخامس عند أهل السنة لما أفتاه من العدل، وكما وردت عن أئمة أهل البيت(ع) كلمات في مدحه ومنع ذمّه كونه من بني أمية وذلك لما رفعه من سب علي وأولاده(ع) من على منابر المسلمين ولردّه فدكاً لأهل البيت(ع) معترفاً بذلك بأنها حقهم الذي اغتصبه الخليفة الأول. راجع سيرته في "الإمامة والسياسة" ج2 ص96-100 وكل من كتب في سيرته المختلفة تماماً عن سيرة سلفه وخلفه من ملوك بني أمية كابن الجوزي.

[128] روت ذلك ابنته عائشة أم المؤمنين قائلة: "جمع أبي الحديث عن رسول الله(ص)، وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيراً قالت: فضمني، فقلت: أتتقلب لشكوى أو لشيء

بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فأحرقها! فقلت لم أحرقتها؟ قال: خشيت أن أموت وهي عندي فتكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت (به) ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك" راجع "تذكرة الحفاظ" للذهبي ج1 ص5، و"كنز العمال" للهندي ج10 ص285.

[129] روى ابن سعد في "الطبقات الكبرى" ج5 ص140 أن "عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيها الناس، إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاباً إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار! ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب. بل إنه أمر"أن من كان عنده شيء من سنة الرسول المكتوبة فليمحه!" كنز العمال ج10 ص291. إن قول عمر "فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها" ووعده "فأرى فيه رأيي" هو الذي جعل الناس تظن أنه يريد جمعها على ما لا اختلاف فيه، ولكنهم لم يتوقعوا أن بانتظارهم خديعة كبرى تخص ثاني أقدس النصوص عندهم.

[130] فعن الإمام الصادق(ع) أن علياً(ع) بعد أن أتم جمع القرآن أخرجه إلى الناس وقال لهم: «هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله على محمد(ص) وقد جمعته على الألواح» وهنا عجيبة لأنهم قالوا أن علياً(ع) لم يبلغ فقالوا: عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: «أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما عليَّ أن أخبركم به لتقرؤوه» "سيرة الأئمة الإثني عشر" لهاشم معروف الحسني ج1 ص78.

[131] إحراق الخليفة الثالث عثمان بن عفان للمصاحف متسالم عليه، وإن شئت فارجع إلى صحيح البخاري ج6 ص315 الذي روى أن أن الصحابة لما كتبوا المصاحف أرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، وروي مثله في سنن أبي داود وغيره. على أنه يجب القول أنني لا أريد التشكيك بنية الخليفة في منع الاختلاف في القرآن الكريم، ولا تقليل الجهد والاهتمام العظيم بأهم ما بأيدي المسلمين، ولكن المقام هو تبيان الاختلاف في التعاطي لهذه الأمور بين علي(ع) وغيره.

[132] وروى الخطيب البغدادي في "تقييد العلم" ص54 عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: "جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن صحيفة فيها أحاديث في أهل البيت بيت النبي، فاستأذنا على عبد الله (بن مسعود) فدخلنا عليه، قال فدفعنا إليه الصحيفة، قال فدعا الجارية ثم دعا بطست فيها ماء فقلنا له: يا أبا عبد الرحمن أنظر فيها فإن فيها أحاديث حساناً، قال فجعل يمحيها فيها ويقول: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بما سواه"؛ فالمشكلة التي تحاشى الوقوع فيها ابن مسعود

هو إثبات أحاديث النبي(ص) في آله الطاهرين – ولا أدري هل هذا لأن الرجل كان يعلم حجم الضغط والتنكيل لمن لا يخضع للأوامر أو أنه هو ممن كان يساير ذلك الخط.

[133] روى قصة، بل محنة، صبيغ المحدثون كالدارمي في سننه ج1 ص54، والمفسرون كابن كثير في "تفسير القرآن العظيم"، الذي لم يهمل الدفاع عن عمر بقوله، بعد إثبات ضرب صبيغ التميمي المسكين مائة جلدة ثم مائة ثم أصدر المنع من مجالسته، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنت وعناد!" ولأنه هو نفسه غير مقتنع فقد ختم الجملة بتلك الكلمة التي كم تستخدم للتخلص من هذا الرأي أو ذاك "والله أعلم" وكفى الله ابن كثير شر صبيغ وقصة صبيغ!

إن مثل هذا الحكم الجائر صار مضرب مثل للحكم الحسن الذي يحكم به كبار الفقهاء على مخالفي طريقتهم، فقد ورى السيوطي في "الدر المنثور" ج2 ص152 أن الإمام الشافعي قال: "حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ، أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام!"

[134] لا شك في أن معاوية وأباه أبا سفيان كانا من أبرز مصاديق الآيات النازلة في ذم الكفار، ومن بعدها في ذم المنافقين بعد أن أسلموا خوفاً من القصاص يوم فتح مكة. ولمن يعترض على رمي معاوية بالنفاق أقول بأن هناك العديد مما يثبته، أهمه بغضه علياً(ع) والناس كلهم يعلمون قول النبي(ص) له(ع) ((لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق))، إضافة إلى أحاديث أخرى سأذكر بعضها أدناه، وعليه فإن آيات الكفار والمنافقين تنطبق في إطارها العام على قادة الكفار والمنافقين قبل غيرهم. فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾ الإسراء:60 والتي هي إحدى تفاسير "الشجرة الملعونة" مع تفسيرين آخرين هما: شجرة الزقوم، واليهود – ولكل منها وجه، إلا أن تفسيرها ببني أمية جاء عن رواية أن النبي(ص) رأى في منامه أن بني أمية ينزون على منبره كنزو القردة فعرف أنهم سيلون الأمر من بعده، فلم يروه ضاحكاً بعدها، فجاءت الآية الكريمة لتخبره أن هؤلاء القوم فتنة للناس؛ راجع تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير الطبري في تفسير هذه الآية المباركة.

وأما الأحاديث فعديدة، منها ((لعن الله الراكب والقائد والسائق)) الذي رواه عدة محدثين كابن أبي الحديد في "شرح نهج البلاغة" ج15 ص174، وبلفظ ((لعن الله الحامل والمحمول والقائد والسائق)) أي البعير وأبو سفيان ومعاوية وأحد إخوته، "أنساب الأشراف" للبلاذري ج1؛ ومنها ((يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت على غير ملتي – وفي لفظ: على غير سنتي – فطلع معاوية وقال النبي(ص): هو هذا)) "أنساب الأشراف" ج2 ص120 الحديث 1518؛ ومنها ((إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه)) "تاريخ دمشق" لابن عساكر ج16 ص362؛ ومنها ((لا أشبع الله بطنه)) "صحيح" مسلم باب البر والصلة والآداب رواية 4713، والتي احتار فيها العلماء الذين يدافعون عن كل صحابي مهما فعل، فانتهوا في هذا الحديث الذي لا يدفع – لأنه في

صحيح مسلم – إلى أن الحديث فيه مدح لمعاوية وليس ذماً! أما كيف؟ فلأنهم ادعوا أن النبي(ص) قال بأنه يمكن أن يدعوا أو يلعن دون وجه حق(!) وعندها فإنه(ص) دعا الله أن يجعل مثل ذلك إذا حصل زكاة للضحية! وهكذا، من أجل تزكية معاوية – الباغي باعتراف جميع العلماء، والمنافق لبغضه علياً(ع) باتفاق الجميع على حديثه(ص) لعلي(ع) ((لا يبغضك إلا منافق))، والداعية إلى النار لاتفاق الجميع على قوله(ص) ((ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)) حتى قتل من قبل جيش معاوية الداعي إلى النار – فإنهم لا يجدون حرجاً في رمي النبي(ص) في ارتكاب الذنب حيث يتسرع في اللعن أو الدعاء على من لا يستحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (راجع "تطهير الجنان واللسان من الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان" لتنظر كيف ذهب ابن حجر الهيتمي كل مذهب من أجل الدفاع عن سيده معاوية ضد ما جاء في ذمه ومنها هذا الحديث النبوي.)

[135] روى ابن أبي الحديد في "شرح نهج البلاغة" ج11 ص44 وصف أبي الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب "الأحداث" لما فعله معاوية في هذا الشأن، قال: "كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي(ع)، فاستعمل عليهم زياد ابن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي(ع)، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطرفهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة؛ وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته؛ ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر فشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة فإن هذا أحب إلى وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله؛ فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك

على المنابر وألقى إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان أنظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه وشفع ذلك بنسخة أخرى من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره، فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي(ع) ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها. فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي(ع) فازداد البلاء والفتنة فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض. ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين(ع) وولي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة وولّى عليهم الحجاج بن يوسف فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم وأكثروا من الغض من علي(ع) وعيبه والطعن فيه والشنئان له حتى أن إنساناً وقف للحجاج، ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب، فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً وإني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج! فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا!" ثم جاء ابن أبي الحديد بما يؤكد هذا من كلام ابن عرفة المعروف بنفطويه، الذي وصفه بأنه "من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه" حيث قال: "إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم".

[136] كما يفعل الوهابيون حتى أنك لا تكاد تجد ذكراً لأي تفسير غير تفسير ابن كثير الدمشقي لأنه تلميذ ابن تيمية – إمامهم المقدم كلامه على كل كلام –، ولا تكاد تجد ذكراً لأي كتاب في السيرة النبوية غير سيرة ابن هشام الحميري كونها الأشد غمطاً لعلي(ع) ورفعاً لغيره (بالأخبار المكذوبة)؛ فإذا ما جاؤوا إلى كتب الحديث والتي يدعون أنهم لا يقبلون غيرها، لاسيما "الجامع الصحيح" لمحمد بن اسماعيل البخاري و"الجامع الصحيح" لمسلم بن الحجاج، فإنهم يسقطون عناوين بعض الأبواب من الفهارس كي يتعسر العثور على أحاديث في ذلك الباب مما يدحض حجتهم ويؤيد حجة أعداءهم ولا سيما شيعة أهل البيت(ع)؛ أما إذا ألفوا الكتب فإنها تأخذ ما

تشاء وتترك ما تشاء دون منهج علمي، وتقطع الروايات دون تقوى، ويردون الروايات الصحيحة أو الحسنة حسب قول بعض علمائهم أنفسهم دون توضيح، فإذا ما وضحوا كان الفعل مذهبياً وليس علمياً، فهذا رافضي وهذا مبتدع وهذا شيعي كذاب وهكذا، فإذا ما لم يجدوا بداً من إيراد رواية ما لأنها مما اشتهر ولا يمكن دفعه أو إهماله فإنهم يعمدون إلى تحريف الدلالة الواضحة عليها. فإذا ما لم ينفع هذا شيئاً فإنهم يلجؤون إلى الشتائم والسباب، ودونك صفحات الانترنت لتعلم المدى السافل الذي وصلوا إليه، فالشيعة عندهم ليسوا إلا مجوساً أولاد زنا بالجملة، ولا عجب في خلقهم هذا فقد ورثوه عن شيخهم ابن تيمية الذي كان – وهو في حوار من الدين في الصميم مع العلامة ابن المطهر الحلي – يسميه "المنجّس"، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

[137] كان(ع) يقول: ((سلوني، فو الله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله فو الله ما منه آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم بسهل أم بجبل)) تفسير عبد الرزاق تفسير سورة الذاريات، و"كنز العمال" للمتقي الهندي ج2 رواية 4740، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد ج2 ص338، بل كان(ع) الوحيد من بين جميع الصحابة من يشجع الناس على السؤال بقوله ((سلوني)) مصنف أبي شيبة ج7 رواية 25897. وكان(ع) يشجع على تقييد العلم بالكتابة حتى لا يترك الأمر للحافظة، فكان(ع) يصعد المنبر ويقول: ((من يشتري مني علماً بدرهم؟)) فسئل: كيف؟ قال(ع): ((تشتري قرطاساً وتجلس تحت المنبر تكتب الحديث)) وفي رواية قام الراوي بتوضيح مراده(ع) بالقول "يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم" راجع "تقييد العلم" للخطيب البغدادي، القسم الثالث، باب إباحة الرسول للكتاب، باب ذكر ما روى عنه من الصحابة رضي الله عنهم أنه كتب.

[138] كما يعتقد بعض الباحثين المحدثين (حديث لسماحة السيد سامي البدري أحد العلماء العراقيين/ لندن - 19/ 3/ 1995).

[139] كقوله(ع) يوم الطف: ((أيها الناس انسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الطيار عمي؟ أوَ لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟)) راجع "تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج6 وغيره ممن روى قصة كربلاء الحسين(ع).

[140] كقوله(ع): ((أيها الناس أُعطينا ستاً وفضلنا بسبع، ... وفُضّلنا بأنَّ منّا النبي والصدّيق والطيّار وأسد الله وأسد رسوله وسبطا هذه الأمة... أيها النّاس أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا؛ أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرِّدا، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى وخير من طاف وسعى، وحجّ ولبّى، أنا ابن من حمل على البراق وبلغ به جبرئيل سدرة المنتهى، فكان من ربّه

كقاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى؛ أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيّين، ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ومفرّق الأحزاب، أربطهم جأشاً، وأمضاهم عزيمة، ذاك أبو السّبطين الحسن والحسين، علي بن أبي طالب؛ أنا ابن فاطمة الزهراء، وسيّدة النّساء، وابن خديجة الكبرى...)) "مقتل الحسين" للخوارزمي ج2 ص69.

[141] كما فعل الإمام السجاد(ع) مع ذلك الرجل الشامي الذي أظهر الشماتة والعداوة عند دخول الإمام(ع) والسبايا إلى دمشق، فأوضح له الإمام(ع) أنهم من أهل البيت الذين طهرتهم آية التطهير وأمرت بمودتهم آية المودة وقضت لهم بالخمس آية الخمس، فأعاده عن ما غسلوا به دماغه (راجع تاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير وغيرهما). وكما فعل الإمام موسى بن جعفر الكاظم(ع) مع ذلك الرجل العمري الذي قابل الإمام(ع) بالعداوة وسوء القول، فقام الإمام(ع) بزيارته في بستانه وأحسن إليه بالعطاء وفتح أبواب الرحمة التي جبلوا(ع) عليها (راجع "أعيان الشيعة" ج2 ص7).

[142] "الإمامة والسياسة" ج1 ص17

[143] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج6 ص19

[144] "الإمامة والسياسة" ج1 ص19

[145] "السقيفة" لعبد العزيز الجوهري ص48

[146] "الإمامة والسياسة" ج1 ص18-19

[147] فقد أورد الإمام(ع) قول معاوية في كتاب الأخير له(ع)، وتعليقه عليه: ((وقلت "إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع"، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت – وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه؛ وهذه حجتي إلى غيرك قصدها ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها)) "نهج البلاغة" ج2 الكتاب/الرسالة 28.

[148] "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة ج2 ص47 وص96

[149] هناك إصرار على الاصطفاف مع هذا الباغي الغاوي يصل الآن إلى مديات عليا بسبب الاستقطاب الطائفي الذي يقف خلفه بشكل واضح أتباع مدرسة محمد بن عبد الوهاب (وأعداء الأمة الكبار من خلف هؤلاء) بحيث أن كلمة "رضي الله عنه" إذا جاء ذكر معاوية (بعد

تصدير اسمه بكلمة "سيدنا")، أو كلمة "رضي الله عنهما" إذا جاء الاسم مع اسم أبيه أبي سفيان، عدو الله ورسوله(ص)، تكاد تكون عنواناً للنضال ضد شيعة آل محمد(ص)؛ وهذا من سخف العقول، دع عنك قلة التقوى والعلم، لأنه لن يضير الشيعة أنك تترضى أو تُسيِّد من تشاء، ولكن يضيرك أن تفعل ذلك مع طليق عدو لله ورسوله(ص)، شك حتى بعض غير الشيعة بإسلامه. وإذا كان البعض قد صار عنده حساسية من حديث النبي(ص) لعلي(ع) ((لا يبغضك إلا منافق)) للدلالة على نفاق معاوية، فإني آتيه بقول لمعاوية يدل بوضوح على استخفافه بالنبي(ص)، فقد روي أن معاوية شكى إلى أبي قتادة عدم استقبال الأنصار له استقبالاً حسناً عندما وصل المدينة، وسأله عن الإبل التي تذبح للزائر الكبير رد عليه أبو قتادة رداً موجعاً "عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر!"، ثم قال له بأن النبي(ص) قال للأنصار: ((إنكم سترون بعدي أثرة))، فسأله معاوية: "فما أمركم؟" قال: "أن نصبر حتى نلقاه على الحوض"، فعلق معاوية: "فاصبروا حتى تلقوه!" هذا الجواب المستخف لقول النبي(ص) يدل بوضوح على استخفافه بالنبي(ص) وبحوضه وقوله، ما يقطع بعدم إيمانه، ومثل هذا لا ينبغي، بل لا يجوز، تسييده والترضي عنه؛ على أن الترضي ليس بأمانيهم لأن الأمر لله تعالى القائل ((فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)) التوبة:96 (راجع "شعب الإيمان" للبيهقي التاسع والأربعون منها، و"تاريخ دمشق" لابن عساكر ج34 ص296).

[150] كتب الإمام الحسين(ع) رسالة رداً على رسالة معاوية قائلاً: «أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها رغبة بي عنها، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا اللّه تعالى. وأما ما ذكرت أنه رمي إليك عني فإنما رقّاه الملاّقون المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً وإني لأخشى اللّه في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلّين حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم. أَ لست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة جرأة على اللّه واستخافاً بعهده؟ أَوَ لست بقاتل عمرو بن الحمق الذي اختلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من سقف الجبل!

أَوَ لست المدعي زياداً في الإسلام فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول اللّه(ص) أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل؟

سبحان اللّه يا معاوية! لكأنّك لست من هذه الأُمة وليسوا منك!

أَوَ لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك في حقه زياد أنه على دين علي كرم اللّه وجهه، ودين علي هو دين ابن عمّه(ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولو لا ذلك كان أفضل

شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها اللّه عنكم بنا منّةً عليكم؟ وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأُمّة في فتنة، وإنّي لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها. وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمّد، وإنّي واللّه ما أعرف فضلاً من جهادك، فإن أفعل فإنّه قربة إلى ربّي، وإن لم أفعله فأستغفر اللّه لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى. وقلت فيما قلت: متى تكدني أكِدك، فكدني يا معاوية ما بدا لك، فلعمري لقديماً يُكاد الصالحون وإنّي لأرجو أنّ لا تضر إلاّ نفسك ولا تمحق إلاّ عملك، فكدني ما بدا لك، واتّق اللّه يا معاوية، واعلم أنّ للّه كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، واعلم أنّ اللّه ليس بناس لك قتلك بالظنّة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيّاً يشرب الشرب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلاّ قد أوبقت نفسك، وأهلكت دينك، وأضعت الرعية، والسلام» "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة ج1 ص164.

[151] "الإمامة والسياسة" ج1 ص155-157

[152] نفسه ص181-188

[153] نفسه ج2 ص11 و12 (والمشار إليه هو طاغية العراق الذي أمر جنده بمهاجمة الثائرين سنة 1991م باستخدام كافة الأسلحة، حتى أنهم استخدموا صواريخ أرض-أرض ضد المدن الآمنة والأحياء السكنية، وكان من ضمن ذلك قصف مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) في النجف ومرقد الإمام الحسين(ع) في كربلاء – فيصدق فيه وصف الإمام الحسين(ع) لمعاوية المذكور أعلاه ((لكأنّك لست من هذه الأُمة وليسوا منك))).

[154] "تاريخ الأمم والملوك" للطبري ج6 ص343

[155] الخازوق هو عصا يتم إدخالها في شرج المحكوم بالإعدام، من أجل تعذيبه عذاباً شديداً قبل موته، ثم تثبت على الأرض والضحية معلق عليها حتى ينزل ببطء شديد، ربما استغرق ساعات وحتى أياماً، بفعل ثقل وزنه، في حالة من الألم المرعب المخيف. على أن البعض يشكك باستخدام العثمانيين للخازوق في البلاد العربية. وبغض النظر عن المتهم والمشكك، فإن الحكام المسلمين عبر القرون، وبضمنهم حكام ما بعد دولة الخلافة، لم يؤلوا جهداً في استثمار جميع وسائل التعذيب التي تفتق عنها العقل المريض لبعض البشر، فكان الخازوق، والشوي على النار، والمثرمة وغيرها.

[156] تاريخ الطبري ج5 ص204، والعقد الفريد ج4 ص328

[157] "الإمامة والسياسة" ج1 ص73، و "الأغاني" لأبي الفرج أخبار عروة بن أذينة ونسبه، "شرح نهج البلاغة" ج2 ص467

[158] "أعيان الشيعة" للسيد محسن الأمين ج1 ص456

[159] "شرح نهج البلاغة" ج6 ص146 (وقوله(ع) "غدر بسبّته" تأكيداً على عدم الحفاظ على العهد من مروان هذا، كما يمكن أن يكون تصويراً لحال مروان في الغدر بعد البيعة كما كانوا يفعلون في الجاهلية – يدير أحدهم إسته دلالة على عدم احترامه لما أعطاه من كلمة أو عهد).

[160] "صفين" لنصر بن مزاحم ص115، ورواها الدينوري في "الأخبار الطوال" ص165 بلفظ مشابه جداً. أما لفظ "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 206 ففيه لفظة "سبابين" وليس "لعانين شتامين" – ((إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر؛ وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به))، والفارق كبير بين اللعن والسب، وله بحثه الخارج عن المقام.

[161] مسند الإمام الشافعي كتاب قتال أهل البغي ص180، و"كنز العمال" ج6 ص413، وينابيع المودة ج2 ص30 وصيته(ع) لابنه الحسن(ع)؛ أيضاً روى الحاكم في "المستدرك" ج3 ص144 وصيته(ع) بحسن معاملة ابن ملجم.

[162] "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 74

[163] إن لعن أمير المؤمنين علياً(ع) سنّه الغاوي معاوية بن أبي سفيان مع أن المسلمين سمعوا قول النبي(ص): ((من سبّ علياً فقد سبّني)) "المستدرك على الصحيحين" للحاكم النيسابوي ج3 ص130 حديث 4615، حتى أن أم المؤمنين أم سلمة(رض) سألت رجلاً: "أيُسبُّ رسول الله فيكم؟!" قال: "معاذ الله أو سبحان الله أو كلمة نحوها" فقالت: "سمعت رسول الله(ص) يقول: ((من سبّ عليا فقد سبّني))" "مسند أحمد" ج6 ص323 وغيره. ولم يكتف بالسبّ الذي كان يقوم به المجرمون من ولاته على الأمصار حيث كانوا يسبّون علياً(ع) وأولاده(ع) من على المنابر التي كان سيفه وجهاده وتضحياته – بتوفيق الله له من جانب وعزمه(ع) من جانب آخر – العامل الأهم في تشييدها في كل مكان، ومن ضمن ذلك منبر النبي(ص) في المدينة المنورة ذاتها، بل كان يريد أن يقوم الجميع بتلك الجريمة حتى كبار الصحابة ممن وقفوا مع علي(ع) يوماً يقاتلون هذا الباغي وأهله المشركين وحلفائهم، فعندما قابل سعد بن أبي وقاص سأله: "ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟!" "صحيح مسلم" ج4 ص1871 رواية 2404، ومع أنه لم يكتف بسن سب أحد كبار الصحابة – حسب وصفهم – بل يستقصي السب حتى يستفسر عن سبب امتناع سعد عنه، فإنهم لا يزالون يترضون عنه ويسيدونه ويرمون بالنفاق من يعاديه! مع هذا عندهم من الصلف ما يجعلهم يدعون أنهم هم محبو أهل البيت(ع) وأن الشيعة مدعون كاذبون!

(ولعله من المناسب أن آتيك بحقيقة موالاتهم لأهل البيت(ع) لتعلم من هو الموالي الحقيقي ومن هو المدعي الذي يوالي أشد أعداء آل محمد(ص) وإلى يومنا هذا. فهذه فتوى مقدمة إلى موقع شبكة

الإسلام www.islamweb.net يسأل فيها السائل عن قضية السّبّ هذه وعن خلافة معاوية، أذكر منها ما يتعلق بموضوعنا وهو السّبّ – أورده كما هو.

قسم الفضائل والتراجم – فضائل الصحابة – فضائل الصحابة

تأويل قول معاوية لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب

الخميس 7 رمضان 1433 – 2012-7-26

رقم الفتوى:184243

التصنيف: فضائل الصحاب

السؤال

هناك حديث في صحيح مسلم بأن معاوية بن أبي سفيان يطلب من سعد بن أبي وقاص أن يسب أبا تراب أي علي بن أبي طالب. هل لكم أن توضحوا لنا هذا الحديث وكيف استلم معاوية الخلافة، علما بأنه كان هناك الكثير من خيرة صحابة النبي من هم أولى منه وأعلم وأعلى مكانة؟ أفيدونا وجزاكم الله خيرا؟

الإجابة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فأما هذا الحديث فثابت بلا شك، وقد رواه مسلم في صحيحه، ولفظه: عن عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ؟ فَقَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلَاثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَنْ أَسُبَّهُ، لَأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَهُ، خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي» وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ: «ادْعُوا لِي عَلِيًّا» فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} [آل عمران: 61] دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي».

وقد تأول العلماء هذا الحديث على محامل حسنة.

قال النووي رحمه الله: قول معاوية هَذَا لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُ أَمَرَ سَعْدًا بِسَبِّهِ وَإِنَّمَا سَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ الْمَانِعِ لَهُ مِنَ السَّبِّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَلِ امْتَنَعْتَ تَوَرُّعًا أَوْ خَوْفًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ تَوَرُّعًا وَإِجْلَالًا لَهُ عَنِ السَّبِّ فَأَنْتَ مُصِيبٌ مُحْسِنٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ فَلَهُ جَوَابٌ آخَرُ، ولَعَلَّ سَعْدًا قَدْ كَانَ فِي طَائِفَةٍ يَسُبُّونَ فَلَمْ يَسُبَّ مَعَهُمْ، وَعَجَزَ عَنِ الْإِنْكَارِ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ فَسَأَلَهُ هَذَا السُّؤَالَ. قَالُوا:

وَيَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا آخَرَ أَنَّ مَعْنَاهُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُخَطِّئَهُ فِي رَأْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَتُظْهِرَ لِلنَّاسِ حُسْنَ رَأْيِنَا وَاجْتِهَادِنَا وَأَنَّهُ أَخْطَأَ قَوْلُهُ. انتهى.

ولئن سلم أن معاوية أمر سعدا رضي الله عن الجميع بالسب فأبى فليس هذا بقادح في واحد منهم رضي الله عنهم، فلقد كان بينهم ما هو أكبر من ذلك يوم صفين ولم يكن ذلك مما تنقص به رتبة واحد منهم عند أهل السنة والجماعة، بل هم يعتقدون أن ما جرى بين الصحابة من اقتتال وما دونه هم فيه معذورون، وإنما وقع منهم ما وقع باجتهاد، فاعتقد كل واحد منهم أنه مصيب، فالمصيب منهم له أجران والمخطئ له أجر وخطؤه مغفور، ومهما أخطأ المخطئ منهم فإن خطأه ليس شيئا بجنب ما له من الصحبة والنصرة والبذل في سبيل الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، فعقيدة أهل السنة في الصحابة جميعا واضحة كل الوضوح لا لبس فيها بحمد الله، فهم يتولون جميع الصحابة ويعرفون للفاضل فضله ويكفون عما شجر بينهم ولا يقعون في أحد منهم.

إنتهى النقل

تعليقي: لعل القارئ التفت إلى أن المجيب بدأ بالتبرير من عنوان الفتوى، أي "تأويل ..." وهي الكلمة التي لم يزالوا يدافعون بها عن الجرائم والانخرافات ومخالفة الكتاب والسنة، ثم يبدأ الجواب بجملة "وقد تأول العلماء هذا الحديث على محامل حسنة"! ولا أريد أن أعلق، بل أطلب من القارئ أن ينظر إلى قول النووي في محاولة اللف والدوران حول سؤال معاوية لسعد مع أنه في غاية الوضوح. إذ كيف يكون من سنّ السّبّ يأتي إلى من يمتنع تورعاً وإجلالاً ليقول له "أنت مصيب محسن"؟! أما التأويل الذي بعده فأكثر سواداً. ولا أدري والله كيف ينزل كبار العلماء – والنووي يعتبرونه إمام الحديث – إلى هذا الدرك من أجل طليق باغ قاتل خليفة راشدي على الأقل على الملك والسلطان ليس إلا.

ثم التفت إلى أن مُنشِئ الفتوى نفسه غير مقتنع بما قاله النووي فقال: "ولئن سلم أن معاوية أمر سعدا رضي الله عن الجميع بالسب الخ" ليذهب إلى نفس القول المعروف بأن الصحابة مجتهدون مأجورون الخ، وعليه فإن معاوية مأجور على عناده مع الحق وجرائمه والدماء التي أسيلت بسبب رغبته في السلطان حتى قتل عشرات البدريين من الصحابة ومئات من الصحابة الآخرين، في حين أن من اعتزل القتال – كسعد بن أبي وقاص – ليس له أجر! ترى كيف يمكن لأمة تفكر هكذا أن تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة.

هذا، مع أن المفتي يعلم باليقين أن معاوية لم يسأل في هذا الإطار، وذلك لوجود روايات أخرى تقول بأنه "نال من علي" وأن سعداً "غضب". ففي شرح سنن ابن ماجة للسندي، المقدمات فضائل علي رضي الله عنه رواية 118 – أخرج رواية تقول "قدم معاوية في بعض حجاته فدخل عليه سعد فذكروا علياً فنال منه ، فغضب سعد وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) وسمعته يقول: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) وسمعته يقول: ((لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله))؟! فهذا مقدار تقوى المفتي وعلمائه المشرفين على الموقع.

إن هذا الحديث، الذي أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجة في سننه وغيرهما، يؤكد حقائق عن علي(ع) يقطع الطريق أمام أي مسلم إذا كان يخشى الحساب ألا يوالي علياً وآله(ع)، مع ذلك هذا حال المفتي وعلمائه وموقعه، ثم عندهم من الصلف ما يجعلهم يرمون الشيعة بما فيهم هم من الإعراض عن آل محمد(ص) في كل شيء.

[164] تاريخ الطبري ج4 ص372، و"بحار الأنوار" للمجلسي ج46 ص138

[165] من ذلك ما رواه الأمين في "أعيان الشيعة" ج2 ص7 أن رجلاً كان يؤذي الإمام الكاظم(ع) ويشتم الإمام علي(ع) فأراد بعض أصحاب الإمام(ع) قتله فنهاهم، ثم سأل عن الرجل وعلم أن له زرعاً في أطراف المدينة، فذهب إليه على حمار له ودخل المزرعة فصاح به الرجل "لا تطأ زرعنا" لكن الإمام(ع) نزل وجلس يتلاطف معه وسأله عن زرعه وما يرجو منه، وهكذا حتى أعطاه مقدار ما يرجوه وزيادة! فقام الرجل وقبل رأس الإمام(ع)؛ بعدها صار يدعو للكاظم(ع) دائماً.

[166] "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 192

[167] يكفي في ذلك قولته(ص) الشهيرة لأهل مكة يوم الفتح: ((إذهبوا فأنتم الطلقاء)) مع أنهم لم يبقوا طريقة من طرق البغي والعدوان ضده إلا واستعملوها، قذفاً وسبّاً وافتراءً، ثم طرداً في حصار شعب أبي طالب ثلاث سنين، حتى اضطر هو وأصحابه إلى الهجرة، فلم يلبثوا إلا وجاؤوا إلى بلد هجرته ليحاربوه؛ هذا، مع أن الله تعالى أحل له مكة ساعة كان له فيها أن يقيم فيهم القصاص، ولكنه ترك حقه وحق أصحابه وجاد عليهم بالحرية.

[168] روى الحاكم في "المستدرك" ج2 ص514 أن أنس بن مالك سمع عمر يقول: "﴿فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً﴾، قال: فكل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم نفض عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر الله التكلف! إتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب!" رواه أيضاً السيوطي في "الدر المنثور" ج6 ص317 وغيره.

[169] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج1 مقدمات؛ وذكر أن واضع علم النحو أبو الأسود الدؤلي بتوجيه من علي(ع) آخرون كابن قتيبة في "الشعر والشعراء" ج2 ص615، وابن حجر العسقلاني في "الإصابة في معرفة الصحابة" ج2 ص241.

[170] "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد ج1 المقدمات. إن كتاب "نهج البلاغة" ليس الوحيد الجامع لكلمات أمير المؤمنين(ع)، بل هناك الكثير الكثير من حديثه في شتى مجالات العلم: العقيدة والشريعة والأخلاق والسيرة والسياسة والملاحم والنفس والفخر وسمّ ما شئت، وذلك في مصادر

عديدة من كتب التفسير والحديث والتاريخ والسير والأدب، إلا أن كتاب "نهج البلاغة" جمعه الشريف الرضي وطبقت شهرته الآفاق، واهتم به العلماء بالاستفادة والشروح العديدة، التي يعتبر شرح ابن أبي الحديد المعتزلي أوسعها انتشاراً. ولي كتاب اسمه "حُجَجُ النَّهْج" ضمنته حجج أتباع أهل البيت(ع) على أفضلية علي(ع) وأولاده المعصومين وإمامتهم ودورهم، جمعت فيه ما تناثر في ذلك ليس من أصل "نهج البلاغة" فحسب بل أيضاً من "شرح نهج البلاغة" لابن أبي الحديد و"شرح نهج البلاغة" للشيخ محمد عبده.

[171] تحوي الصحيفة السجّادية، من إنشاء مولانا الإمام علي بن الحسين زين العابدين الملقب بالسجّاد(ع)، أدعية متنوعة – بعضها لأوقات معينة كيوم الجمعة، وبعضها لمناسبات معينة كختم القرآن، وبعضها لحاجات محددة كالتوبة، وأخرى تركز على المقدس عند المسلمين؛ ولمن ترك التعصب وراءه فإنها كافية لإقناعه بالفارق الهائل بين أئمة الهدى من آل محمد(ص) وبين غيرهم، راشدين وغير راشدين، حيث يجد المطلع عليها أولاً، والداعي بها ثانياً، والداعي بها الملتفت إلى مفاهيمها ثالثاً، والداعي بها المتلبس بحالاتها المعنوية رابعاً، ذلك العقل الوقّاد الذي يحاول الإحاطة بجميع جوانب الدعاء – من جهات الداعي والمدعو وموضوع الدعاء، وتلك الروح المتعالية في حديثها مع المولى عز وجل بشكل يقربها إليه بما لا مثيل له في غيرها، وفي جميع ذلك ربط المؤمن بربه ومولاه سبحانه وتعالى بحيث يمكن لهذه الأدعية أن تكون آلة الداعي للوصول إلى وصف أمير المؤمنين(ع) تلك النفوس المحظوظة حقاً ((عَظُمَ الخالق في أنفسهم فصَغُرَ ما دونه في أعينهم)).

[172] راجع خطب علي(ع)، وحتى كتبه/رسائله، وكلماته القصار، سواء التي رويت في "نهج البلاغة" أو غيره، وكلمات الحسن والحسين وباقي أئمة الهدى(ع) دون استثناء، تجد فيها التوحيد الخالص والتوصيف الفذ للمولى عز وجل مما لا يزال منغلقاً عن عقول الكثيرين إلى اليوم. مثلاً، يقول الإمام علي(ع): ((وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير موصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه)) "نهج البلاغة" ج1 الخطبة 1. فهو(ع) يقول أن الإخلاص الكامل هو الذي يؤمن بالذات المقدسة مجردة من كل قرينة لها حتى ولا أي صفة وردت في الكتاب العزيز؛ هذا يعتبره البعض من غير مدرسة علي(ع) أنه مخالف للتوحيد الحق لأنهم يؤمنون بالصفات مع الذات – فتدبر في القولين واحكم.

ويقول ولده الحسين(ع) في دعاء يوم عرفة: ((كيف يستدلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك))، أي أن الدليل على الله تعالى من خلال خلقه ربما يكون لمن لا يملك القدرة على النظر في العمق، وإلا فإذا كان الخلق من صنعه سبحانه فهل يمكن أن يكون المصنوع دليلاً على الصانع؟! فالإمام(ع) يريد من الناس أن تنظر بنور البصيرة التي تتعلق بنفخة الروح الموجدة للإنسان، لا بنور البصر الذي ينظر إلى المحدودات في الخارج.

وقال الإمام علي الهادي(ع): ((لم يزل الله موجوداً ثم كون ما أراد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، تاهت أوهام المتوهمين، وقصر طرف الطارفين، وتلاشت أوصاف الواصفين واضمحلت أقاويل المبطلين)) مؤكداً التوحيد الخالص للذات بتلاشي أوصاف الواصفين واضمحلال أقاويل – وليس أقوال لأنها أقوال مردودة – المبطلين (راجع الاحتجاج للطبرسي ص449).

[173] فقد علم أئمة أهل البيت(ع) الناس الطريق الوسطى الصحيحة مما نزل في كتاب الله وربما انغلق على الأفهام بسبب الخلط بين المحكم والمتشابه من الآيات، أيضاً بسبب الكم الهائل من الروايات الموضوعة أو المشوهة عن النبي(ص) بسبب علل الروايات المعروفة. فمثلاً، من العقائد المترسخة التي لا شك فيها في مدرسة أهل السنة أن الناس سيرون الله تعالى يوم القيامة وذلك اعتماداً على روايات ولكن الأهم على آية ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ . إلى ربِّها ناظِرَة﴾ القيامة:22-23، على أساس ظاهر اللفظ "ناظرة" أي تنظر إلى الرب عز وجل. إلا أن الأئمة(ع) رفضوا هذا الفهم تماماً لأن هذه الآية من المتشابه الذي يجب علينا رده إلى المحكم كي نتبين الحقيقة، وإلا سنقع في القول بأنه سبحانه موجود في مكان محدد محدود، وإلا كيف نستطيع النظر إليه. أما الجانب الأول، جانب المتشابه والمحكم، فإنهم(ع) قالوا بأن قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ﴾ الأنعام:103 يقطع باستحالة رؤيته لأن هذه الآية لا يمكن تأويلها بحال فإن ظاهرها قاطع لا يمكن أن يعني أي شيء آخر، في حين أن قوله تعالى ﴿إلى ربها ناظرة﴾ يمكن له أن يكون مجازياً، ودليله من القرآن نفسه في قول ملكة سبأ ﴿وإني مرسلةٌ إليهم بهديّةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يرجعُ المرسلون﴾ النمل:35 أي "منتظرة" ما يرد سليمان(ع) به على هديتها، وعليه فإن "ناظرة" في قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ تعني "منتظرة"، وهو ما بينه الأئمة(ع) بأنها منتظرة رحمة الله تعالى وكرمه وعطائه. وأما الجانب الثاني، جانب نفي وجوده تعالى في مكان محدد محدود، فهو واضح من قوله تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ الحديد:4 (وقول علي(ع) ((لا يخلو منه مكان)) وتوضيحه من الصادق(ع) ((فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان)) "الاحتجاج" ج2 ص75، لأنه سنخ آخر)، ولكن الأئمة(ع) أوضحوا بالقطع في ذلك، كما في قول علي(ع) ((مَنْ حَدَّهُ فقد عَدَّه، ومن عَدَّه فقد ثَنّاه ...)) "نهج البلاغة" الخطبة 1، أي أن القول بالحد يعني وجود محدد في مكان محدود، وهذا يعني عدّه واحداً في المكان الكذائي، فلماذا لا يكون هناك ثانياً في مكان آخر، وهكذا الوصول إلى تعدد الإلهة وهو الخروج من التوحيد العقيدة الأساسية للدين.

[174] حديث معروف نسب إلى النبي(ص) "بحار الأنوار" ج1 ص220، كما نسب إلى الإمام الصادق(ع) الحديث ((العلم ثلاثة: الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان)) نفس المصدر ج75 ص45 حديث 52، "تحف العقول" ص144، وفيه إضافة القدرات التواصلية إلى علوم الشريعة وعلوم البدن.

[175] كتاب "طب الأئمة(ع)" جمع عبد الله بن سابور الزيات والحسين ابني بسطام النيسابوريين من القرن الرابع الهجري، جمع روايات عديدة في الطب والصحة عن أئمة أهل البيت(ع).

[176] كتاب "طب الإمام الصادق(ع)" لمحمد الخليلي (1900-1968)، وهو مؤلف معاصر جمع فيه أحاديث في الطب والصحة والأمراض، وبضمن ذلك الجوانب النفسية، وفوائد الأغذية، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع).

[177] "الرسالة الذهبية للإمام الرضا(ع) في الطب والوقاية" يعتقد أن الإمام علي بن موسى الرضا(ع) كتبها للخليفة المأمون العباسي في الفترة التي كان فيها معه في خراسان (201-203هـ)، فلما تمت واطلع عليها المأمون أمر أن تكتب بماء الذهب فسميت بهذا الاسم. والرسالة تحتوي على الأعراض المرضية ومعالجتها بأنواع الأدوية والأغذية.

[178] كتاب "توحيد المفضل" دروس في علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ألقاها الإمام جعفر الصادق(ع) على أحد شيعته هو المفضل بن عمرو الجعفي من أعلام القرن الثاني الهجري، الذي روى عنه(ع) وعن ولده الإمام الكاظم(ع)، فيها أسرار الخلقة في شكل الأعضاء وحجمها ووظائفها، بهدف الدلالة على الخالق الواحد الأحد سبحانه وتعالى، لذلك سميت "توحيد المفضل".

[179] أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي (ت 160هـ) من أصحاب الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع)، ويعتبره الجميع من العرب والغرب أبا الكيمياء الحديثة، كما قالوا بأنه كان متقدماً على زمانه بكثير.

[180] في كتابه "الخواص الكبير" يلخص جابر منهجه التجريبي بالقول: "علمته بيدي، وبعقلي، وبحثته حتى صح، وامتحنته فما كذب"، وهذه هي التجربة كما صارت الطريقة التي يتعلمها الجميع بدءاً من المدارس.ولكن من أين لجابر هذا وغيره؟

يقول الأستاذ المصري المعاصر عبدالحليم الجندي: "وربما كان الكلام المنقول عن جابر بن حيان أوضح كلام في الدلالة على المنهج التجريبي الذي تعلمه في مجلس الإمام أو من كتب الإمام. يخاطب جابر الإمام في مقدمة كتابه الأحجار بقوله: وحق سيدي لولا أن هذه الكتب باسم سيدي صلوات الله عليه، لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد" "الإمام الصادق" للمستشار عبد الحليم الجندي ص295 (ولكن ارجع إلى بعض من يكتب ترجمة جابر بن حيان – كراغب السرجاني في موقعه "قصة الإسلام" الذي جاء بملخص لجابر من عشرين مصدراً لعل أكثرها إن لم يكن كلها يشير إلى تتلمذه على يد الصادق(ع) – فلا تجد أثراً لاسم الإمام الصادق(ع)، ثم يقولون بعدها أنهم يراقبون آية مودة القربى، بل هم الشيعة الحقيقيون!)

[181] أوضح الإمام الباقر(ع) خطته لعبد الملك كالآتي: ((تدعو في هذه الساعة بصُنّاع فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير، وتجعل النقش صورة التوحيد وذكر رسول الله (صلّى الله عليه

وآله) أحدهما في وجه الدرهم، والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي يضرب فيها، وتعتمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة إلى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين فيصرا لعدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان، فتضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل وأمره بضرب السكة على هذا اللون في جميع مناطق العالم الإسلامي، وأن يكون التعامل بها، وتلقى السكة الأولى، ويعاقب بأشد العقوبة من يتعامل بها، وترجع إلى المعامل الإسلامية لتصب ثانياً على الوجه الإسلامي)) "حياة الحيوان" للدميري ج1 ص62، و "النقود العربية" للأب أنستاس الكرملي.

[182] راجع كتاب "تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام" للسيد حسن الصدر أو كتاب "الفكر التربوي للشيعة الإمامية" رسالة دكتوراه من جامعة عين شمس للسيد علاء الدين أمير محمد الكاظمي القزويني.

[183] مثال ذلك تعامل الخلفاء والحكام مع الأئمة(ع) أنفسهم، ففي حين لم يجبر أبو بكر وعمر علياً(ع) على بيعة أبي بكر، بل اكتفيا بتهديده بترك المنازعة، نجد أن عمر يعين أبو طلحة الأنصاري جلاداً لقطع رأس من يعترض من أهل الشورى ومنهم علي(ع). ثم تدرج الأمر إلى حد قتل الإمام الحسن(ع) بالسمّ أي بشكل تآمر سرّي، ولم تمض سوى عشر سنين حتى قتل الحسين(ع) قتلة علنية هو وأهل بيته وأصحابه بشكل منقطع النظير.. وهكذا تدرج الأمر من ترك مع التهديد إلى التهديد بقطع الرأس إلى القتل بشكل سري إلى القتل العلني دونما خوف من أحد من الأئمة. ثم صار الأئمة الآخرون(ع) يقفون أمام الحكام والملوك وبينهم وبين السيف أمر الحاكم الذي لا يعيده عن ذلك سوى عدم اقتراب الأجل. مثال آخر الحديث النبوي: في البدء تم التحايل على المسلمين بجمع الحديث ثم حرقه، وبعد ذلك المنع من التحديث ولكن بحجة الخوف على القرآن، ثم المنع أيام معاوية وقطع رأس من يتحدث بما لا ترضى به السلطة، ثم وصل الأمر إلى انفصال الأمة إلى فريقين أحدهما شيعة أهل البيت(ع) الذين ليس فقط يعرضون على السيف بمجرد رغبة الحاكم وإنما يرفض حتى الفقهاء وعلماء الحديث رواياتهم لتشيعهم لعلي وآل علي(ع). وفي التالي تدرج نحو الأسوا شيئاً فشيئاً.

[184] لذلك ترى الأشاعرة (أهل السنة) يقولون بالجبر مستدلين بآيات كقوله تعالى ﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُون﴾ الصافات:96، فيقول صاحب العقيدة الطحاوية: "وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون... فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء

كتبه الله تعالى فيه أنه كائن، ليجعلوه غير كائن – لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً – لم يقدروا عليه. جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة".

نعم، إنه ﴿يفعل ما يشاء﴾ و ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ ولكن هل يعني ذلك إجبار العباد على فعل المعاصي كما من قوله "وغلب قضاؤه الحيل كلها"؟ كما أن هناك مشكلة في كلمة "كتبه الله تعالى"، فإذا كان المقصود هو أنه أراده سواء أراد العبد أم لم يرد فهو جبر واضح، ولكن إذا كان المعنى أنه علم بوقوعه قبل وقوعه فهو ينفي الجبر لأن علمه سبحانه لا دخل له بوقوع الفعل.

المشكلة هي ذلك الفهم عند جمهور الأمة بأن ما يفعلونه كتبه الله عليهم، فكيف يرضون بمساءلتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم في الآخرة؟! والأهم هو أن الحكام يتخلصون من كل تبعة، على الأقل في الدنيا أمام الرعية، بأن أفعالهم أرادها الله تعالى فهم غير مسؤولين عنها.

185 روي هذا القول عن أبي ذر(رض) وهو آخذ بحلقة باب الكعبة المعظمة: "أيها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فسانبئه بإسمي: فأنا جندب أبوذر الغفاريي" ثم قال: "ألا أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، لو قدمتم من قدم الله، وأخرتم من أخر الله، وجعلتم الولاية حيث جعلها الله لما عال ولي الله، ولما ضاع فرض من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم من أحكام الله... فذوقوا وبال ما كسبتم" "بحار الأنوار" للمجلسي ج27 ص319 (وروي أنه من قول الإمام علي(ع)، "الكافي" للكليني ج7 ص78).

186 ذكرت مصادر خطبتها(ع) في هامش 120 فراجعه.

الفصل الثالث

البحث في السؤال الثالث

مسؤوليتنا من أجل التغيير

مما تقدم، لا بد أنه قد أصبح واضحاً أنه لكي تصل الأمة الإسلامية إلى الوضع الذي يؤهلها لنفض ركام التخلف والتشرذم وللوقوف موقف النّدّ لأعدائها، وصولاً إلى حالة القدرة على هزيمتهم كمقدمة لإيصال الإسلام إلى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، لا بد من الالتفاف حول الأطروحة التي تمثل الإسلام الحقيقي كما نزل على محمد(ص)، وهذا هو ولاية أهل البيت(ع)، وبها تصبح أمة الإسلام ممثلة، على صعيدي النظرية والتطبيق لا النظرية فقط، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾ آل عمران:110[187].

ولدراسة مسؤولية المسلمين في تحقيق ذلك يمكننا تقسيم المسلمين، كما هم منقسمون فعلاً، إلى أتباع لأهل البيت(ع) وأتباع لغيرهم. وبطبيعة الحال فإن مسؤولية الطرفين تختلف باختلاف الموقف من أهل البيت(ع). لذا، سنتكلم

مع كل مجموعة على حدة كي نوجّه كلاً إلى مسؤوليته إزاء الأمة ومشاكلها وآلامها ومصائبها ومآسيها.

مسؤولية أتباع أهل البيت(ع)

ربما يظن القارئ أن مسؤولية أتباع أهل البيت(ع)، أي الذين يدعون أنهم الشيعة ويشير إليهم الآخرون بأنهم الشيعة بالمعنى الاصطلاحي داخل الإسلام[188]، هي أقل من مسؤولية غيرهم. وإذا كان هذا القارئ شيعياً فإني قد أخيب ظنه إذا قلت له بأن مسؤوليته أكبر من مسؤولية أخيه الذي لا يعرف عن حقيقة أهل البيت(ع) ما يعرفه هو، كيف لا ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ الزمر:9، ليس فقط في المنزلة وإنما في الحساب والمساءلة أيضاً.

ولنضع ما نراه من مسؤوليات في نقاط كالآتي:

1- مسؤولية إعداد الذات

ربما يتغنى الذي يعتقد أنه بموالاته لآل محمد(ص) صار شيعياً ويطرب ويتفاءل بقول النبي(ص) لعلي(ع): ‹‹والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة››[189] أو قوله(ص): ‹‹يا علي أنت وشيعتك في الجنة››[190] أو قوله(ص): ‹‹وإن شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي، أشفع لهم،

فيكونون غداً في الجنة جيراني››[191] وغيرها من أحاديث ترفع من شيعة علي(ع) إلى أعلى الدرجات. ولكن هل هذا الحديث يشمل كل من يدّعي التشيع لآل محمد(ص) أم أنه مخصص بمن يسير على خطهم ويعمل بأوامرهم ونواهيهم؟

لقد حدد آل محمد(ص) أنفسهم المعيار في ذلك، وهو مراقبة حدود الله في الحلال والحرام. قال الإمام الباقر(ع): ‹‹لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلاّ مَن أطاع الله عزّ وجلّ››[192].

كما فرّق الأئمة(ع) بين مراتب الشيعة ذاتها. فقد ورد عن الإمام الحسن(ع) قوله لرجل وقد قال: "إني من شيعتكم يا ابن رسول الله"، قال: ‹‹يا عبد الله، إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها! لا تقل أنا من شيعتكم، ولكن قل أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادي أعدائكم، وأنت في خير وإلى خير››[193].

فالمعيار، إذاً، هو طاعة الله ورسوله(ص)، وهذا يعم الجميع ومن ضمنهم من ينتسب إلى النبي(ص). قال علي(ع): ‹‹إن وليّ محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته››[194]. فلا تنفع قرابة محمد(ص) وآل محمد(ص) أحداً شيئاً إن كان ممن يعصي الله لأنه عدو لله كما نصّ الإمام(ع).

حتى الشفاعة، فقد قال الإمام السجاد(ع) للرجل الذي قال متعجباً للإمام(ع) بأن جده النبي(ص) وأمه الزهراء(ع) وأبوه الحسين(ع) فلماذا يدعو الله وكأنه

من المجرمين، قال(ع): «دع عنك حديث أبي وأمي وجدي، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون»[195]؛ وهذا الإمام المعصوم فكيف بغيره؟

وقد وصف الإمام علي(ع) الشيعة بقوله لخادمه قنبر لمّا أخبره أن شيعته بالباب فقال الإمام(ع) أنه لا يرى سيماهم، فلما سأله عن سيماهم قال: «عُمش العيون من البكاء، ذُبل الشفاه من الذكر، خُمص البطون من الطوى»[196]. وقال علي بن الحسين(ع): «إنما شيعتنا يعرفون بعبادتهم وشعثهم، قد قرحت العبادة منهم الآناف ودثرت الجباه والمساجد، خمص البطون، ذبل الشفاه ... المسبحون إذا سكت الناس، والمصلون إذا نام الناس، والمحزونون إذا فرح الناس، يعرفون بالزهد، كلامهم الرحمة، وتشاغلهم بالجنة»[197]. فإذا جمعت صفات العبّاد الصائمين القائمين المتقين هؤلاء إلى قول الإمام(ع): «ما شيعتنا إلاّ مَن أطاع الله عزّ وجلّ» وقول الإمام الحسن السبط(ع) المار أعلاه، عرفنا البون الشاسع بين أكثرية مدّعي التشيّع في زماننا وبين الشيعة المعنيين بهذه الأحاديث الشريفة.

لذا، يتوجب على من يتبع مدرسة أهل البيت(ع) أن يعمل وفق ما وجهه إليه الإسلام من خلال الكتاب وسنّة النبي(ص) وحديث الأئمة(ع)، لكي يرقى بنفسه إلى الدرجة التي يستحق معها أن يحمل وسام التشيع على صدره، في الدنيا والآخرة. وهذا لا يُنال بطبيعة الحال لا بالأماني ولا بالادّعاء ولا بالخطب الرنّانة، ولكن بالعبادة بكافة أشكالها: العبادة المباشرة من صلاة وغيرها، والعبادة غير المباشرة ولا سيما العمل من أجل إسعاد الآخرين وخدمتهم.

ويحضرني هنا، ونحن في هذا العصر الذي يدّعي فيه مئات الملايين التشيّع وموالاة أهل البيت(ع)، قول الإمام الصادق(ع) عندما شكا بعض الشيعة ما يلقونه من الناس بقولهم: "إن الناس يؤذوننا ويقولون هؤلاء شيعة جعفر"، قال(ع): ‹‹ما أقلّ من يتّبع جعفراً منكم››[198].

2- مسؤولية إعداد الأهل

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ التحريم:6. وهذه الآية تأمر أمراً صريحاً بالعمل الجاد الدؤوب لوضع النفس والأهل على الطريق الصحيح لتجنيبهم الخسران في الآخرة. ولا شك في أن الظروف تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولكن المسؤولية واحدة والهدف واحد. وإذا ما كانت الظروف أصعب فإن هذا لا يلغي المسؤولية أو يخفف منها وإنما يعرض الذي يقوم بها إلى أجر أكبر.

ومن البديهي أن قسماً مهماً من التوجيه يجب أن يصب في دائرة الإمامة وما يتعلق بها من نظرية وتطبيق وذلك ليس فقط لأن هذا هو الواجب الشرعي الذي يجب تهيئة الأهل للقيام به، وإنما هو السبيل الصحيح لإعداد النخبة الصالحة التي تستطيع القيام بواجبها تجاه إخوانها من غير الشيعة في تعريفهم بأهل البيت(ع) ودورهم المخلّص في الإسلام والعالم بشكل عام.

3- المسؤولية تجاه الأئمة(ع)

نستطيع اختصار مسؤولية الشيعي تجاه أئمته(ع) بالعمل بالنصوص التي وردت عنهم:

-«ما شيعتنا إلا من أطاع الله»، وهو أمر باتباع أوامر الإسلام ونواهيه، لأنه بخلافه يخرج الإنسان من مسمّى التشيّع بحيث يصبح غريباً عن الأئمة(ع).

-«أحيوا أمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا»، وهو أمر بتعريف المسلمين بحقيقة أهل البيت(ع) كيف يؤوبوا إلى نورهم ويركبوا سفينتهم ويلزموا جماعتهم، وهذا يكون بكل الوسائل المتاحة من تعليم وتدريس ووعظ ونشر وإعلام ودعوة وغيرها، وكذلك يكون بتحقيق كل الوسائل المتاحة من تعليم وتدريس ووعظ ونشر وإعلام ودعوة وغيرها، كما أوضح الإمام الرضا(ع) تتمة لهذا الحديث، قال: «يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[199]، وكذلك يكون بتحقيق المثال الصحيح للمسلم فيمن يواليهم(ع) عملاً بقولهم: «كونوا لنا دعاة بغير ألسنتكم»[200].

-«كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً»[201]، وذلك باجتناب كل ما يعيب الأئمة(ع) مما ليس من ضرورات الدين، والذي يدخل فيه الانحراف عن تعاليم الإسلام بشكل عام مثلما يدخل فيه تعريض الأئمة(ع) للازدراء من جرّاء القيام بأفعال مبتدعة يظن أصحابها أنهم يفعلونها حباً بالأئمة(ع) ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف:104.

-‹‹جُرّوا إلينا كلّ مودّة وادفعوا عنّا كلّ قبيح››[202]، وهذه أقوى من الأولى لأنها تجعل الشيعي يفكر أن الفعل الحسن لن يكون "زيناً" فقط، بل سيجعل الناس تزداد مودة لأهل البيت(ع)، والفعل القبيح لن يكون "شيناً" فحسب، بل سيدفع الامتناع عنه اقتران القبيح عنهم(ع). أي يكون الشيعي ليس أكثر مراقبة لأفعاله وأقواله فحسب، ولكن أيضاً أكثر تفاعلاً مع المجتمع بما يزيد من اقتراب الناس إلى الحق وأهله.

4- المسؤولية تجاه الإخوان المؤمنين

إن حق الإخوان حق عظيم إذ يجب حفظ حق الأخ في نفسه وماله وعرضه، وحفظه في غيبته، وحفظه من نفسه الأمّارة بالسوء، وتنبيهه إلى ما يجب اجتنابه من القول والفعل، وكل ما أمر الإسلام به من صفات للإخوان المؤمنين.

ولقد جاء في الروايات ما يجعل للإخوان حقاً عظيماً ليس له علاقة بما نعيشه اليوم من حال مؤسف. فقد روي أن الإمام(ع) أمر رجلاً أن يقطع الطواف بالكعبة المعظمة ليجيب رجلاً آخر دعاه[203]. ولكننا اليوم نذهب إلى الحج والعمرة والزيارة ونكرر ذلك وننفق الأموال الطائلة في الوقت الذي يعيش الملايين من إخواننا المؤمنين في شظف العيش، بل في الوقت الذي صار مئات الألوف من أطفال الشيعة يموتون جوعاً، وفي الوقت الذي يتعرض الكثير من أتباع أهل البيت(ع) إلى خطر التحريف والابتعاد عن ولاية الأئمة(ع) بسبب افتقادهم لرغيف الخبز أو الثوب أو السقف. فما أقلّ من يتبع جعفراً منّا.

هذا، ناهيك عن الملايين من حقوق هؤلاء الفقراء التي ينفقها بعض من وضعوا أنفسهم في موضع الوكيل عن هؤلاء الفقراء والمساكين ولكنهم اختاروا ألا يعيشوا معيشة علي وآل علي(ع) كما يدعون الناس إلى ذلك وإنما اختاروا أن يعيشوا معيشة آل أبي سفيان.

5- المسؤولية تجاه غير الشيعة (أهل السنّة)

مرة أخرى، ينبغي على الشيعي أن يهتدي بهدي الأئمة من آل محمد(ص) في التعامل مع إخوانه من أهل السنّة سواء المعاملة معهم بشكل عام أو في إطار القيام بمسؤوليته بتعريفهم بولاية الأئمة(ع) ودورهم في الأمة. بهذا الشكل ستكون المعاملة الحسنة واحدة من أهم الوسائل لإعطاء صورة مشرقة عن أتباع مدرسة أهل البيت(ع)، أي تصب هذه في مجرى تلك.

إذاً، يمكننا وضع مسؤولية الشيعي تجاه غير الشيعي في إطار تعريفهم بدور أئمة أهل البيت(ع) في الأمة في حقلين:

(الأول) أن يكون نموذجاً طيباً لأتباع أهل البيت(ع) وذلك بالتخلق بأخلاقهم(ع) والتأسّي بسيرتهم(ع) والاهتداء بهديهم ونصائحهم(ع). وهذا سيحقق أمرين:

أولاً، سيعطي صورة للشيعة مغايرة للصورة التي يرسمها أعداؤهم ويخوفون وينفرون منها غيرهم إلى الدرجة التي لا يعود هؤلاء بقادرين على النظر في وجه شيعي دع عنك الاستماع إلى كلامهم أو متابعتهم في مذهبهم؛

ثانياً، تجعل الشيعي أكثر قبولاً لدى غيره وبالتالي يصبح ما يدعو به بخصوص أئمته(ع) أمراً يحمل وزناً ما وليس أمراً عديم القيمة، وهذه أول متطلبات الدعوة.

وهنا نذكّر بالأحاديث: ‹‹كونوا لنا زيناً ولا تكونوا لنا شيناً››، ‹‹كونوا دعاة لنا صامتين››، ‹‹ما شيعتنا إلا من أطاع الله›› وغيرها.

(الثاني) الدعوة إلى ولاية أهل البيت(ع) بتوضيح دورهم في الأمة الإسلامية كخلفاء للنبي(ص) وأمناء على التنزيل والتأويل بعده(ص) مما يجعل اتباعهم أمراً ضرورياً للأمة كي تنهض من الهاوية التي تجد نفسها فيها اليوم، بل ومنذ قرون.

شروط الدعوة إلى أهل البيت(ع):

وهذه الدعوة تتطلب ما يلي:

(أولاً) تحقيق الوارد في الحقل الأول أعلاه، أي التخلق بأخلاق الأئمة(ع) وبسيرتهم جهد الإمكان لأنه من غير المعقول أن تدعو أحداً إلى اتباع الأئمة(ع) وأنت نفسك لا تتبعهم في الواقع، إذ ليس هناك فرق على مستوى النتائج بين من يدّعي أنه شيعي وهو بعيد عن التشيع الحقيقي بمعنى اتباع أهل البيت(ع) وبين من لا يعرف أهل البيت(ع)، بل لعل ضرر الأول أكبر لأنه يعطي صورة سيئة للتشيع بصفة عامة فيكون عاملاً مساعداً على محاربة التشيع وهو لا يشعر.

(ثانياً) إعداد العدّة للأمر، وذلك بفهم الإسلام كما علّمه لنا أهل البيت(ع) الذين هم النقلة الصادقون عن رسول الله(ص) والذين، مهما فعل الدهر من تشويه لدورهم وخلط لعلومهم وأحاديثهم، يبقون هم المرجع الأمين والمأمون لأخذ الشريعة بنصوصها وروحها، أو كما قال الإمام الباقر(ع): «فليذهب الحَكَم – يعني الحكم بن عتيبة الفقيه – يمينا وشمالاً، فوالله لا يؤخذ العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل عليه السلام»[204] أو قوله(ع): «فليذهب الناس حيث شاؤوا، فوالله ليس الأمر إلا من هاهنا» وأشار بيده إلى بيته(ع)[205]. وهذا الإعداد يكون أولاً بالتأكد فيما إذا كان المرء لائقاً للدعوة لأهل البيت(ع) – أعني الدعوة الإيجابية (قبال الدعوة الصامتة التي هي الدعوة من خلال التخلق والسير بالسيرة الحسنة كما ذكرنا) وذلك:

أ- بمعرفة ملكاته الشخصية من حيث قوة الفهم والحافظة وسرعة البديهة والوضوح في الفهم وفي التفسير للآخرين وفي القدرة على ضبط النفس وعدم الغضب، إضافة إلى الملكات الأخرى الأقل أهمية كالصفات الخَلقية كالشكل والصوت وغير ذلك مما قد يؤثر في بعض الأحيان.

ب- بمعرفة فيما إذا كان يمتلك المتطلبات المادية الأولى للأمر وهي العلم واللغة. فالعلم لا يجوز أن يكون مقتصراً على معرفة دور أهل البيت(ع) مجرداً عن الشبهات التي أثارها ويثيرها أعداء أهل البيت(ع) وشيعتهم ولا مجرداً عن رد هذه الشبهات، لأنه بدون الحجة القوية ربما بدا صاحب الحق داعية باطل وضلال وداعية الباطل صاحب الحق، وإلا لما رأينا هذا الضلال المنتشر فليس جميع الناس يتبعون الباطل طمعاً في دنيا وإنما يتبعه الكثير

منهم ظنّاً منهم أنه الحق. وأما اللغة فلا بد من التمكن منها سواء كانت اللغة الأصلية للنصوص وهي العربية أو اللغات الأخرى التي يتكلم بها المدعوون.

ج- الدعوة بأسلوب الرفق والهدوء وعدم تسخيف العقائد المغايرة وعدم التهجم على الأشخاص المقدسين عند الطرف الآخر. قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل:125، وذلك لأنك غير مسؤول عن النتائج فما عليك سوى التبليغ والله يتولى بلطفه من كانت عنده القابلية النفسية كما أكلمت الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل:125. وكما وصف نبيه الكريم(ص) بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران:159. بل لقد أمرنا عز وجل بألا نجادل اليهود والنصارى إلا بالحسنى بقوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ العنكبوت:46، فكيف بالمسلمين!

د- بمعرفة إمكانية وصوله إلى الآخرين من أجل أن يدعوهم، إذ أن طرق الدعوة متعددة وقد تكون طريقة ما أنجع من غيرها في ظرف آخر مع شخص آخر. أيضاً، يختلف استعداد الناس لقبول الرأي الآخر اختلافاً شديداً، فمنهم من يستمع إلى الكلمة الواحدة فينبثق في قلبه نور الولاية ويصدق مع نفسه وربه ويتبع الطريق الصحيح، في حين أن منهم من يعيش وسط الحق سنين طويلة ولكنه يظل معرضاً عنه كأن في أذنيه وقراً ويثبت الزمان أنه غير لائق لذلك ﴿إِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف:57.

هـ- تحديد المراد: الدنيا أم الآخرة؟ إن الكثير من الشيعة لهم علاقات متنوعة مع إخوانهم من أهل السنة: علاقات مصاهرة أو عمل أو دراسة أو جيرة أو غيرها، ولكن المؤسف أن الغالبية الساحقة منهم يعرضون عن دعوة إخوانهم إلى الحق خشية أن يؤدي ذلك إلى فقدانهم أو فقدان مصالحهم معهم. وهذا يوضح كم هو بُعد مدّعي التشيع عن التشيع الحقيقي. ذلك أن احتمال فقدان مصلحة دنيوية لا يجب أن يحول دون القيام بالمسؤولية تجاه الأخ الذي ارتبطت معه بالمصاهرة أو العمل أو السكن أو السفر أو مقاعد الدراسة أو التجارة، لأنك إن كنت تحبه حقاً فيجب أن يكون أكبر همك أن تدعوه إلى ولاية أئمة الهدى، وأما إن كنت تحب تجارتك أو مالك أو مصالحك الدنيوية أكثر فيجب أن تتوقف عن الإدّعاء بالتشيع لآل محمد وإنما لك أن تدّعي الموالاة والبراءة من أعدائهم لأن ذلك زيادة في الذنب بادّعاء مرتبة شريفة – وهي التشيع – كما أمر الحسن السبط فيما أوردناه في الفصل السابق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة:24.

هذا، مع أنني لا أرى أن احتمال خسارة هذا الشريك أو الجار أو الزميل كبير لا سيما إذا كانت الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبالحجة القوية، لأنه إن جنح للحجة فقد فاز وفزت، وإن عاند فقد عاند وهو يعلم

أن الحق معك وبذا فلا يملك بينه وبين نفسه كبير سبب ليقطع صلتك به. وأما إن لم يقتنع حقاً بما تقول فلا يمكن أن يقطع صلته بك خصوصاً إن كنت ممن يُفتخر بالعلاقة بهم أو يحافظ عليها إذا كنت تقتدي بمحمد وآل محمد(ص).

و- أخيراً، بمعرفة ظروفه الحياتية والمعيشية وفيما إذا كانت تسمح له بالدعوة، والاتكاء على الظروف الصعبة ستجد لها أنصاراً كثيرين ممن يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولكن المخلصين منهم يعرفون أنه مهما كانت الظروف صعبة وغير ملائمة فلا بد أن هناك شيئاً يمكن القيام به من أجل التغيير نحو الغد الأفضل.

6- المسؤولية تجاه الإمام المهدي(عج)

يوجد في أوساط موالي أهل البيت(ع) من يعتقد، أو من يريد أن يتكل ولا يعمل، أن موضوع التغيير يعود إلى صاحب الأمر(عج) وأنه سيتكفل بذلك وأنه ليس بيد الشيعة عمل شيء قبل ظهوره(ع). بل أن هناك من يعتقد أنه لكي يظهر الإمام(ع) فإن الأرض يجب أن تمتلئ ظلماً وجوراً وذلك تحقيقاً لحديث النبي(ص) بأن المهدي(عج) «سيملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»[206]. وبذا فإنه من الأفضل ترك الأمور تسير من سيء إلى أسوأ كي تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً تحقيقاً لهذا الشرط، وجميع هؤلاء مخطئون في فهمهم تماماً كما سنبيّن أدناه ملخصاً.

بعض الشبهات الخاصة بطبيعة الانتظار

أما الآخرون فإنهم لم يلتفتوا إلى حقيقة أن الأرض قد ملئت ظلماً وجوراً فعلاً، ليس الآن، وإنما منذ زمن بعيد! صحيح أن الأوضاع تسير من سيء إلى أسوأ، إلا أن حالة امتلاء الأرض بالظلم والجور قد تحققت منذ أمد ليس بقريب، لأن الحديث لا يقول بأن الأرض يجب أن يمتلئ كل متر مربع فيها أو كل قضية فكرية أو كل حالة اجتماعية بالظلم والجور، فإن مجرد صيرورة الأرض ومن عليها بحالة يمكن أن نطلق عليها وصف «ملئت ظلماً وجوراً» يكفي لتحقيق هذا الشرط. هذا، مع أن هذا ليس شرطاً أصلاً، وإنما هي حالة تتم مجابهتها ومعالجتها بحركة صاحب الأمر(ع)، أما الشروط – بمعنى العلامات – فهي السفياني والصيحة وغيرها مما ذكر في الروايات أنه من المحتوم[207]. وهكذا، فإن أي عمل من شأنه أن يحسّن من أوضاع المسلمين ويرفع بعض الضيم عنهم لن يستطيع أن يحقق التغيير الشامل الذي ينهي حالة الامتلاء بالظلم والجور، فإن هذا مما سيحققه الإمام المنتظر أرواحنا فداه، وعليه فلا مبرر للتوقف عن العمل الصالح خشية حصول التغيير نحو الأحسن!

أما الأولون، وهم كثير، فإن موقفهم السلبي، وهو موقف الانتظار دون عمل شيء سوى الدعاء بتعجيل الفرج إنما هو موقف مردود بما نص عليه الثقلان: الكتاب والعترة الطاهرة، وهما اللذان أمرنا النبي(ص) أن نفزع إليهما لمعرفة الحق.

بما أن النبي(ص) أمرنا بالتمسك بمرجعية الثقلين: القرآن والعترة الطاهرة في الحديث الصحيح (سأشير إليه آخر الفصل) فإن علينا استنطاق الثقلين عند محاولة معرفة أسباب تأخر الظهور. فأما الثقل الأكبر، أي الكتاب العزيز فينصّ صراحة على أن التغيير يجب أن يأتي من الناس أولاً لكي يتبعه نصر الله. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد:11، وهي صريحة في أن التغيير يجب أن يأتي من الناس أولاً، فإذا فعلوا أعانهم الله على ذلك بألطافه الخفيّة وتسديداته وبركاته وكرمه.

وأما العترة الطاهرة فقد ورد عن الإمام المنتظر(عج) نفسه ما يوضح الأمر. قال(ع):

1- ‹‹.. فإنا نحيط علماً بأنبائكم ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبذوا العهد المأخوذ منه وراء ظهورهم... فاتّقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حمّ أجله ويحمي عنها من أدرك أمله...››[208].

2- ‹‹ ... فليعمل كل امرئ منكم بما يقرب به من محبتنا ويتجنب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة حين لا ينفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة..››[209].

3- ‹‹... ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد لما تأخر عنهم العمى ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على

حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكره ولا نؤثره منهم...››[210]

فالحديث الأول ينص صراحة على أن الكثير من أتباع مدرسة أهل البيت(ع) ابتعدوا عما كان عليه الشيعة المؤمنون في العهد الأول، وأنهم نبذوا العهد وراء ظهورهم – والعهد هو الالتزام بالحلال والحرام وسيرة آل محمد(ص). بل أن أول الحديث ينص على أن الذل الذي أصاب الشيعة حصل منذ أن جنح كثير منهم بعيداً عما كان عليه السلف الصالح، ثم يأمر الحديث بتقوى الله تعالى وبإعانة الإمام(ع) على مساعدة الشيعة من الفتنة التي ستأكل منهم من جاء أجله، لأنه يقول ‹‹وظاهرونا›› أي كونوا لنا ظهيراً. وهذه إن لم تكن بالالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه ثم السعي لتهيئة الأرضية اللازمة لحركة الإمام(ع) كي يقوم بانتياشنا من الفتنة التي أنافت علينا، فكيف تكون؟

الحديث الثاني يأمر الشيعي بالعمل ‹‹بما يقرب به من محبتنا ويتجنب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا››. ولا يقرّب من محبة الإمام(ع) ولا يبعّد من كراهته وسخطه شيء كالالتزام بالشريعة التزاماً كبيراً أولاً، والعمل من أجل الإسراع بحركته ثانياً، لأن ذلك هو أعظم ما يرجوه الإمام(ع)، فقد خلق لهذه الغاية ويتحمل مرارة الانتظار ومعاصرة قرون الظلم والجور صابراً محتسباً انتظاراً لساعة الفرج على يديه. ثم ينذر الحديث إنذاراً عظيماً وهو أنه لن يكون هناك متّسع للعمل بعد ظهوره وبدء حركته بل سيكون العمل غير مقبول ‹‹فإن أمرنا بغتة فجأة حين لا ينفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة››.

وأما الحديث الثالث فأوضح الجميع في أن السبب في تأخر ظهور الإمام أرواحنا فداه فإنما هو الحال المزري للشيعة أو من يدّعي التشيع والموالاة «ولو أن أشياعنا... لما تأخر عنهم العمى...» فلولا هذا الحال لما تأخر الظهور السعيد. ثم يؤكد(ع) بقوله: «فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكره ولا نؤثره منهم» وهي أوضح من الشمس في أن السبب في تأخر الفرج هو ما جنته الشيعة بأيديها من سوء فعلها واختلاف كلمتها وتشتت قلوبها وعدم وفائها بالعهد.

وهكذا، بيّن الإمام(ع) نفسه، وهو أعلم من غيره بشروط الفرج، أن على الشيعة العمل ما وسعهم للإسراع بإذن الله له بالظهور وهو الذي فيه فرجهم وفرج الإنسانية جميعاً، وهذا لا يمكن أن يكون بالدعاء فقط، وإنما بشيئين: العمل الصالح على المستوى الشخصي والعمل الصالح على المستوى الاجتماعي الذي يتضمن تأليف قلوب موالي الإمام(ع) من جهة، والدعوة إلى أهل البيت(ع) وإليه بالخصوص من جهة أخرى.

نخلص إلى القول بأن مسؤولية الشيعي في التغيير ورفع الأمة من محنتها هي بإصلاح نفسه أولاً ليستحق هذا الوسام – وسام التشيع – والانتماء إلى سادة الأئمة(ع)، وبتهيئة نفسه – إذا كانت ظروفه تسمح – للدعوة إلى الحق ثانياً، وبالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة مع كل من يستطيع أن يصل إليهم ثالثاً. قال رسول الله(ص) لعلي(ع) يوم بعثه إلى اليمن: «لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[211].

زماننا وزمان الظهور

يرى البعض أن ما نشهده اليوم، ونحن في رمضان 1433هـ/صيف 2012م، يشير بشكل واضح إلى أن زماننا هو زمان حركة الإمام المهدي المنتظر(ع)، وذلك بملاحظة نقطة عامة ثم بملاحظة بعض التفاصيل.

أما النقطة العامة فهي أنه للمرة الأولى منذ ورود الروايات عن النبي(ص) وأهل بيته(ع)، أي ما بين إثني عشر إلى أربعة عشر قرناً من الإسلام، تجتمع الأمور الثلاثة التالية:

(الأول) الأوضاع العالمية المضطربة ولا سيما في الاقتصاد، أيضاً في الظواهر الطبيعية؛

(الثاني) أوضاع منطقة الشرق الأوسط المتفجرة والتي تشهد تغييرات كبيرة جداً؛

(الثالث) الروايات عن النبي(ص) وأهل بيته(ع) بخصوص أحداث زمان الظهور.

صحيح أن العالم شهد أحوالاً مضطربة وتشنجات واحتقانات وصلت إلى الحل الأخير وهو الحرب الشاملة، في أماكن مختلفة من العالم، وصولاً إلى الحربين العالميتين في القرن العشرين... وصحيح أن العالم شهد الكثير من الزلازل الهائلة والفيضانات الكبيرة وغيرها من الظواهر الطبيعية في السابق... ولكن العالم لم يشهد مثل هذه الظواهر بعد أن حصلت التغيرات التالية:

(1) الزيادة الهائلة في السكان

(2) الترسانات المخيفة من أشد الأسلحة فتكاً، بحيث أن الذي جرب منها لحد الآن (هيروشيما وناغازاكي) لا يعد شيئاً أمام ما تملكه دول ليست عظمى كالهند وإسرائيل؛ ناهيك عن الأسلحة الجرثومية والكيمياوية والأسلحة السرية باستخدام أنواع الأشعة والتقنيات الحديثة

(3) الارتباط غير المسبوق بين جميع أنحاء العالم بحيث لا يمكن أن يكون أي مكان بمنأى عن أي حدث في مكان آخر

(4) الارتباط غير المسبوق بين العالم الغربي الأكبر تأثيراً في العالم ومنطقة الشرق الأوسط، لأمرين: النفط وإسرائيل، والثانية – إضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي – لها بعدها الديني الذي يزيد من التوتر الدائم بين الغرب والمنطقة العربية

(5) الوضع الاقتصادي الصعب في الغرب بالخصوص، والذي يبدو مستحيل الحل دون تغييرات جذرية لا تحصل إلا بأحداث تغييرية واسعة.

وأما أوضاع الشرق الأوسط، فإن التوترات السابقة التي نتج عنها حروب وثورات وانقلابات ليست كما هي اليوم، والذي يشهد لأول مرة ما يلي:

(1) وضعاً اقتصادياً صعباً في بعض البلدان مع ثراء فاحش في بلدان أخرى بعضها صغير حجماً وسكاناً

(2) تهديد بحرب نووية أو مهاجمة مراكز نووية (بين إيران وإسرائيل)

(3) إستقطاب طائفي – سني شيعي – لم يسبق له مثيل من ناحية الشحن ببعده النوعي – التكفيري الذي يستهين بسفك الدماء وارتكاب أبشع المجازر – والكمي – باستثمار آلة الإعلام من جهة وبدخول أطراف خارجية وداخلية عديدة في تهييجه

(4) أوضاع سياسية مضطربة جداً في المنطقة ولا سيما البلدان الأساسية: العراق ومصر وسورية، والتي يتوقع أن تلحق بها السعودية

(5) أخيراً، صلف غير مسبوق في اتخاذ مواقف قلبت النظرة إلى إسرائيل من عدو أصلي تقليدي واضح أشد الوضوح إلى صديق للبعض أو حليف مؤقت أو على أسوأ التقديرات عدو يجب تحييد الصراع معه من أجل تحشيد الطاقات كلها للصراع مع شقيق في الدين وجار تاريخي يقوم العدو الأصلي الأول بمهمة رأس الحربة في التحشيد ضده!

وأما الروايات عن النبي(ص) وآله الأطهار(ع) فإنها وإن كانت محط أنظار المسلمين – ولا سيما الشيعة – من أجل تطبيقها على الواقع السيء عسى أن يأتي الفرج (خصوصاً وأن الشيعة لم يزالوا يتلقون الضربات عبر التاريخ فأكيد ينتظرون الخلاص)، إلا أن الذي حصل معها – أي الروايات – الآن أمران مهمان، بل مفصليان:

(1) إتفاقها الزمني مع ما يجري اليوم مما أشرنا إليه أعلاه

(2) مدى انطباق تفاصيلها مع ما يجري في المنطقة والعالم.

من أمثلة ذلك أن الروايات تتحدث عن أحداث عالمية هائلة:

موت على نطاق واسع، بأسباب مختلفة – الطاعون، ويقصد به الأوبئة بشكل عام، إلا أنه من الملفت أن الطاعون بدأ يعود إلى العالم في السنوات القليلة القادمة؛ الزلازل؛ الحروب.

ومن أمثلة ذلك أن الروايات تتحدث عن مناطق بعينها:

العراق؛ مصر؛ اليمن؛ الحجاز؛ بلاد الشام؛ الجزيرة (أي بادية الشام بين العراق وسورية)؛ بيت المقدس وفلسطين؛ المغرب؛ خراسان.

ومن أمثلة ذلك أن الروايات تتحدث عن أشخاص محددين:

الخراساني؛ اليماني؛ المصري؛ المغربي؛ السفياني؛ الأصهب؛ الأبقع؛ صاحب السفياني؛ الشيصباني (قبل السفياني)؛ مقتل الحسيني في مصر؛ مقتل الحسني في الحجاز؛ موت حاكم الحجاز.

كما تجمع الروايات بين المناطق والأشخاص والأحداث:

دخول الخراساني (أي الإيراني) العراق من الشرق والسفياني من الغرب؛ قدوم السفياني من الغرب ودعم الروم (الغرب) له وأن من الواضح أنه معاد للإسلام والمسلمين؛ من قبل ذلك أن السفياني أو صاحب السفياني ينزل الكوفة (أي العراق) فينادي مناديه بالجائزة لمن يأتيه برأس أي شيعي وأن الجار يثب على جاره فيفعل ذلك ويقبض الثمن.

هذا من غير التوقيتات التي لا تزال في الزمان القادم، كالمدة بين موت حاكم الحجاز وظهور الإمام في مكة؛ أو المدة التي تستغرقها معارك الإمام المنتظر منذ بدء حركته في مكة وحتى انتصاره النهائي وهي ثمانية أشهر.

أضف إلى ذلك بعض الأوصاف لأحوال الزمان، من قبيل أن أصحابه(ع) يأتونه على الريح، في إشارة واضحة إلى الطائرات؛ أو أن الدواب المستخدمة في الحرب مصفحة ولها أنوار، في إشارة واضحة إلى الدبابات والمدرعات. كما أنه(ع) عندما يتكلم سيراه أهل المشرق والمغرب، في إشارة واضحة إلى البث التلفزيوني.

وبعيداً عن الروايات، هناك نصوص سورة الإسراء (سورة بني إسرائيل) وكيف أن بعض الباحثين المسلمين يقولون بالتوافق بين عدد الكلمات التي تتحدث عنهم وعدد سنوات دولتهم الأخيرة (الحالية) التي يتحدث عنها علماء اليهود أنفسهم مما عندهم في كتبهم.

وعليه، فحتى الذين يحبون أن يكون انتظارهم انتظاراً سلبياً أن ينظروا في إمكانية أن اتجاه الأمور يسير في غير مصلحة الكسالى، لا سيما وأن بعض من يتخذهم أعداء صار لا يفرق بين الكبير والصغير وحتى الطفل الرضيع.

مسؤولية غير الشيعة

ربما يكون مستغرباً لدى البعض أن نحدد لغيرنا مسؤوليتهم تجاه أئمتنا(ع). إلا أن هذا الاستغراب يزول إذا لاحظنا أن ما نحدده من مسؤولية إنما يستند إلى فهم مشترك بين بني البشر عموماً ومنهم المسلمون لمسألة التعرف على الفكر الآخر. فإن الإنسان لا بد له أن يبذل ما في

وسعه للتعرف على الحق وأتباعه وذلك لأن هذا هو المعقول من التعامل مع المسائل الخلافية أولاً، ولأنه – في حالة المؤمنين بالله واليوم الآخر – يريد أن يرضي الله تعالى كي ينال رحمته ويدخل جنته في الآخرة ثانياً. وإذا كان قد ثبت لدى المسلم أن دينه الإسلامي هو الدين الخاتم وشريعته هي الشريعة الأخيرة وكتابه هو كلمة الله المنزلة على خاتم المرسلين(ص)، وذلك من خلال السيرة النبوية والإعجاز القرآني وكذلك من إخبار أهل الكتاب مما وصل إلينا رغم التحريف والكتمان، وبالتالي فلا يتوجب عليه أن يبحث في الأديان الأخرى، فإنه لم يثبت لديه أن الإسلام يتضمن مذهباً واحداً لا غير. على العكس من ذلك فإن المعاش من حال الأمة يؤيد ما جاء في الخبر أن الأمة ستفرق إلى عدة فرق ومذاهب، كما أن الحديث النبوي: ‹‹تفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة››[212] معروف مشهور، ومثله كذلك قوله(ص): ‹‹لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل››[213]، وقوله(ص): ‹‹لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ظب لتبعتموهم›› قيل: "أهم اليهود والنصارى؟" قال(ص): ‹‹فمن؟›› أو ‹‹فمن الناس؟››[214] أي: نعم، وحال اليهود والنصارى من الاختلاف الكبير والافتراق إلى مذاهب وفرق معروف ومعاش، وهكذا لا بد وأن يكون حال الأمة الإسلامية، وهو الحاصل مع الأسف الشديد.

وأتصور أن هناك حدوداً ثلاثة لمسؤولية المسلمين من غير أتباع مدرسة آل محمد(ص):

الحد الأول من المسؤولية: البحث عن الحق

فالحد الأول من مسؤولية المسلم هو أن يبحث عن الحق من خلال هذه الاختلافات ليستيقن من أن مذهبه الذي هو عليه صحيح أم خطأ أم لنقل ليس صحيحاً تماماً. فإن وجد أن مذهبه هو الصحيح – ونعني بالصحيح الإسلام كما نزل على سيد المرسلين(ص) ولا أقل من ذلك – وجب عليه أن يبقى عليه ويدعو الناس عليه. وإن وجد أن مذهباً آخر هو الصحيح وجب عليه أن يترك ما هو عليه ويتابع الحق الذي استبان له وسط هذا الاختلاف. وهذه هي أول أطراف مسؤولية المسلم غير الشيعي: أن يبحث ليرى إن كان التشيع لأهل البيت(ع) هو الإسلام الصحيح الذي يمكن له أن ينقذ الأمة من محنتها أم لا.

ولكن، ربما يسأل البعض: لماذا التشيع دون غيره؟

ونجيب بالقول بأن الأمة، وإن اختلفت إلى فرق ومذاهب متعددة، فإنها اختلفت في الواقع المعاش حالياً إلى فرقتين رئيسيتين: السنة والشيعة. وأما الفرق التي يمكن أن نعددها فهي إما تقسيمات داخل كل من السنة والشيعة أو مذاهب صغيرة جداً تبتعد كثيراً أو قليلاً بفكرها وفقهها عن التسنن أو التشيع. أضف إلى ذلك، أن المسلم السنّي لا يعد نفسه يختلف عن غيره من أهل السنة إذا كان هو يتبع الفقه الحنفي وغيره الفقه المالكي مثلاً، فهذه الخلافات التي بين المذاهب الفقهية السنية في القديم والتي سالت من جرائها الدماء لم تعد معاشة اليوم. لذا، فهو يعد نفسه في وحدة واحدة من جميع المسلمين المتبعين للمذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي، في

حين يعرف أنه يختلف اختلافاً كبيراً أو جوهرياً عن الشيعة ولا سيما الشيعة الإثني عشرية لأنهم يقفون موقفاً سلبياً، برأيه، من بعض الصحابة الكبار، في حين لا يقف الشيعة الزيدية نفس الموقف وبالتالي لا يشعر بنفس الشعور المعادي أو المجافي الذي يحص به تجاه الشيعة الإثني عشرية. إلا أن الواقع يدفع باتجاه التقابل بين مذهبه السني وبين التشيع الإثني عشري كون الأخير هو المذهب الغالب على الشيعة في العالم وكونه هو المذهب الذي يثار حوله الجدل داخل الوطن الإسلامي وخارجه وهو الذي يتعرض للهجوم المتواصل من داخل الوطن الإسلامي وخارجه.

الحد الثاني من المسؤولية: التعامل بشكل علمي

وأما الحد الثاني من مسؤولية المسلم غير الشيعي من مسألة أهل البيت(ع) هو أن يتعامل مع المسألة كما يجب أن يتعامل، وكما هو يتعامل فعلاً مع أي قضية علمية، وأؤكد هنا على كلمة علمية. فالقضية، وإن عانت ولا تزال تعاني من الحساسيات والحواجز النفسية المبنية على التنشئة الخطأ والتعليم الخطأ والإعلام المعادي للحق، إلا أنها في جوهرها قضية علمية تجد حجمها في المراجع العلمية سواء الكتب أو حملة العلم من العلماء العاملين أو الدعاة المتعلمين. وكأي قضية علمية، يجب الاحتكام إلى الحجج والمنطق، وكمسلمين فإننا نحتكم أولاً إلى كتاب الله العزيز، ثم إلى سنة نبيه(ص)، ثم إلى إجماع المسلمين، ثم إلى الأدلة الأقل شأناً كروايات التاريخ. ومن يطالع كتب الشيعة عن مذهبهم سواء للدعوة إليه أو من أجل رد الشبهات والتهجمات عنه يجد أنهم لا يحتكمون إلى غير ذلك. كما يجد من يطالع ما يكتبه الشيعة

وما يقولونه مستنداً إلى ما يقوله الآخرون عن أئمتهم(ع) ودورهم في الأمة، سواء في تفسير القرآن وأسباب نزول آياته أو أحاديث النبي(ص) المروية في كتب الآخرين أو الإجماع الذي يضم الآخرين وأخيراً روايات التاريخ التي كتبها مؤرخون من الطرف الآخر.

لذلك، لا يجد السنّي مهرباً من الاعتراف بأن الشيعة ينتهجون منهجاً علمياً صحيحاً في التعامل مع مسألة أهل البيت(ع) ومسألة التاريخ الإسلامي بشكل عام، وبالتالي ليس هناك ما يجعله يخشى من الاستماع إلى رأيهم فيما يقولون ويكتبون.

الحد الثالث من المسؤولية: إتخاذ الموقف الإيجابي

وهذا يأتي بعد التعرف على ما يقوله الشيعة، أي التعامل مع هذه الحجج التي تنتج صوراً جديدة للفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي، هذه الصور التي تصرخ بهذا الشخص الآخر أن يتخذ موقفاً حيالهم. فهل يتخذ موقفاً إيجابياً أم يتخذ موقفاً سلبياً منها؟

الموقف الإيجابي يكون إذا اقتنع بها وآمن بما جاء فيها فنفض عن نفسه جميع الحواجز النفسية والحساسيات ومخاوف ما يحمله المستقبل من تغييرات ومطبات على المستوى الشخصي والعائلي والعملي – وطريق أهل البيت(ع) محفوفة بالمخاطر دائماً – فيتابع الشيعة على رأيهم، ويزيد في أتباع الأطروحة الصحيحة فرداً جديداً، ولكنه فرد مطلع متعلم قد كابد الصراع داخل نفسه وتعلم منه الحجج القوية والحقائق الواضحة بحيث ربما سيصبح هو نفسه داعية للحق.

وأما إن آثر السلامة ولم يشأ أن يعرض نفسه لهذه المطبات والمخاطر فإنه يتخذ موقفاً سلبياً فيبقى على ما هو عليه، ولكن عليه حينئذ أن يعيش أسير الخجل من نفسه والخوف من مساءلة ربه.

وهكذا، فيجب على المسلم أن يتقبل سماع الرأي الآخر، ثم أن يستمع إلى الرأي الآخر، ثم أن يتخذ موقفاً إيجابياً من الرأي الآخر: إن ثبت له أن هذا الرأي الآخر هو الحق عندها يتوجب عليه أن يتحول إليه، وإلا فإنه يبقى على ما هو عليه على أساس أنه الحق حتى يتبين له أنه ليس كذلك. أما أن يقتنع بالرأي الآخر ولكن تمنعه حسابات دنيوية مادية من التحول إليه والأخذ به فهذا موقف سلبي يعرض صاحبه لمساءلة الله تعالى وربما عقابه.

وأما ما هو أكثر من الرأي الآخر، أي الأحداث التي نعيشها، فظني أن اليوم يقترب كي يقرر كل مسلم سني لا يجد في قلبه إلا الحب لكل مسلم بغض النظر عن مذهبه، أن يقرر بين الانحياز – كموقف إسلامي عام – إلى آل محمد(ص) وأتباعهم أو الانحياز إلى أعداء آل محمد(ص) وأتباعهم مهما تلبسوا بلبوس الدين.

بعض آيات الكتاب العزيز

ولنستمع إلى بعض آي الذكر الحكيم في هذا الشأن ولذلك تبصرة وذكرى لكل عبد منيب.

قال الله تعالى مادحاً الذي لا يصمّون آذانهم عن الحق ثم يتبعونه عندما يتبين لهم، وقد نظروا فيه وميزوا أحسنه: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ الزمر:18.

وقال ذامّاً من يعاند عن مجرد سماع الرأي الآخر، وبإصرار تام، متكبراً عن الذكر والنصيحة: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ نوح:7.

وقال ذامّاً من يعاندون بعدما يتبين لهم الحق: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل:14. فهؤلاء يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم ممن يتعلق بهم بسبب أو نسب ممن كانوا سيهتدون لولا عنادهم، كما ويظلمون الأمة والدين بشكل عام لأنهم يبقون في الصف الذي يقف موقفاً سلبياً من الحق وأهله. كما أن السبب في عنادهم هو التعالي والاستكبار عن البخوع للحق واتباعه لأن المتعالين في الصف الذي يرى أنه يسير على طريق الهدى لأسباب ليس لها علاقة لا بالحق ولا بالمنطق كأن تكون لكونه في صف الأكثرية أو في صف الجهة التي تحمل تعايش الإسلام وتهادنه مع الظالمين والذي يشيع بعض الحكام وفقهائهم أنه يمثل جوهر الإسلام حتى عاد الصارخ بالحق الداعي إلى الله إرهابياً والمطأطئ رأسه للباطل والمعين لأعداء الله مسلماً كاملاً.

كلمتا تنبيه إلى إخواننا أهل السنّة

بقي أن نهمس بكلمتي تنبيه في أذن كل باحث عن الحقيقة:

(الأولى) لماذا يا ترى لا يكتفي أعداء الشيعة والتشيع بالهجوم المتواصل عليهما في إعلامهم ومخابراتهم وجيوشهم ومكرهم وكل ما لديهم من قوة، بل يؤكدون على ضرورة عدم السماع – مجرد السماع – للشيعة ولا قراءة كتبهم بل ولا النظر فيها أصلاً؟ أليس ذلك لأنهم يعرفون ضعف حجتهم أمام حجج الشيعة القوية المورقة من تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء؟

أليس لأنهم يعرفون أن مجرد سماع منطق الشيعة وحججهم المبينة لحقيقة أئمة الهدى(ع) ودورهم في الأمة قديماً وحديثاً من شأنه أن يزلزل عقيدة الكثيرين، إن لم نقل الأكثرين، وسوف يدفعهم للبحث بشكل أكثر عمقاً إلى أن يصلوا إلى الاقتناع بما عليه الشيعة؟

لماذا يجوز الاستماع إلى فصائل الضلال وأهل العقائد الضالة وتدريسها في الجامعات ومناقشتها ومنح الشهادات العليا فيها ولا يجوز بل يحرم مجرد الاستماع إلى شيعي يتلو عليك كلام الله ورسوله(ص) في أهل البيت(ع) الذين أجمع المسلمون على فضلهم وهداهم؟

لماذا الخوف، ومم الخوف إن لم يكن من الحق الناصع الذي سيشرق في قلوب الخيرين إن هم اطلعوا عليه؟

ثم، أليس هذا المنهج هو عينه منهج أعداء الإسلام من غربيين وشرقيين في منعهم وصول الإسلام إلى شعوبهم معرفة منهم بقوة حجج دين محمد(ص) وإعجاز القرآن الذي لا يمكن نكرانه بل ما أعلن كثير منهم بأنه يعلو على توراتهم وإنجيلهم وأنه يعلو ولا يُعلى عليه؟

ما الفرق إذاً بين الفريقين: فريق يصد الناس عن معرفة حقيقة محمد(ص) وقرآن محمد(ص)، وفريق يصد الناس عن معرفة حقيقة خلفاء محمد(ص) وأعدال قرآن محمد(ص)؟

قال النبي(ص): «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأن اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» رواه مسلم وغيره بألفاظ متقاربة[215]. فعترة النبي(ص) هم أعدال القرآن الذين لم ولن يفترقوا عنه.

ثم، أليس هؤلاء الأئمة(ع) هم أهل القربى الذين أمر الله نبيه(ص) أن يسأل الناس مودتهم، جاعلاً لها أجراً على تبليغه(ص) إياهم بالرسالة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور؟ قال تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الشورى:23. فجعل الله أجر التبليغ بالإسلام، وهو أعظم نعمة أنعمها الله على كل مسلم، مودة أهل البيت(ع). وبديهي أن ذلك ليس إلا لكونهم أعلى من غيرهم من هذه الأمة، وطالما كان هذا العلوّ ناشئاً عن كونهم أعلى كعباً من غيرهم في علوم الإسلام وفي المنزلة بشكل عام – لأن الله أعدل من أن

يرفع بعضاً على بعض دونما سبب هو في القلب من الرسالة والتبليغ – فإن الذين يتبعونهم إنما يقترفون حسنة أي يكسبون طاعة وبالتالي فإن الله سيزيد في حسنها بأن ينعم عليهم بالمغفرة والشكران. وقد أصبح المولى عز وجل هو الغفور الشكور بألوان الكرامة في جناته كما بشر به في صدر الآية وفي الآية التي سبقتها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾ الشورى:22-23. والحمد لله رب العالمين[216].

(الثانية) أن يفرقوا بين المبدأ والشخص، هنا أن يفرقوا بين ولاية أهل البيت(ع)، أي الأئمة من آل محمد(ص)، وبين أتباع مدرستهم، أي الشيعة. فإن المبدأ هو عقيدة وفكر يتم تناوله بما هو في ما يقدم وفي ما يستند إليه من دليل، بينما الأشخاص لا يمثلون المبدأ إلا بمقدار التزامهم به.

وبما أن مدرسة أهل البيت(ع) قدمت الأدلة القاطعة – حسبما تبين لي ولكثيرين لم يكونوا من أتباع تلك المدرسة – على أن مذهبهم يقوم على الكتاب العزيز والسنة الشريفة بما جاء من تفسير آيات الكتاب وبما جاء من أحاديث من كتب أهل السنة أنفسهم، فإنه ينبغي النظر في المبدأ – كعقيدة وفكر وما يتفرع عن كل ذلك من أحكام شرعية ورؤية شرعية إلى الدين والحكم والحياة والعلاقات – بعيداً عن الصورة التي يقدمها أتباع هذا المبدأ، لأن ما من مبدأ في الدنيا إلا وافترق أتباعه عنه في قليل أو كثير، حسب التاريخ والجغرافية والظروف والطبائع البشرية.

فليس من العدل أن نحكم على مبدأ يتخذ من القرآن والسنة الدليل على صحته لأننا نجد مآخذ على أتباعه أو بعض أتباعه...

وليس من العدل أن نشطب على مذهب يقيم الدليل على صحته من كتب المخالفين لأننا نعيش مشكلة طائفية مع الطائفة التي تتبع ذلك المذهب...

بل لا ينبغي أن أدير ظهري للمذهب فلا أنظر فيه حتى ولو مررت بتجارب مرة، وحتى الظلم، على أيدي بعض أتباع ذلك المذهب...

بل لو وصل الأمر إلى البغض، فإن الله تعالى يقول: ((ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَئانُ قَومٍ على أنْ لا تَعدِلُوا، إعدِلُوا هُوَ أَقرَبُ للتَّقْوى)) المائدة:8 – فحتى لو تمكن البغض من قلبك تجاه جماعة، فلا يجب أن يغلب ذلك على أن تتخذ العدل طريقاً للتعامل معهم، وأي عدل أهم من أن تعدل في النظرة إلى أهم ما عندهم وهو العقيدة...

هذا، مع أن العدل ينسحب عليك أنت، لأنك إن أدرت ظهرك للحقيقة، ولو بالقدر الذي تعطي فيه العذر لأتباع أهل البيت(ع) فيما يعتقدون – كونه مثبت بالدليل من قرآن وسنة من مصادرك أنت –، فإنك تظلم نفسك لأنك تمنعها من الانفتاح على حقائق ربما يمكن لها أن تحقق العلم والفهم والراحة من بعض الإشكالات النفسية التي تأسست وترسخت نتيجة التعليم والتنشئة القائمة على التضليل والتجهيل.

إذا حاسبنا مذهب آل محمد(ص) حسب واقع بعض أتباعه نكون قد حاسبنا الأئمة من آل محمد(ص) على ما لم يفعلوه...

وإذا حاسبنا التشيّع حسب تصرفات بعض الشيعة، فلا اعتراض إذاً إذا ما حاسب الآخرون الإسلام حسب تصرفات بعض المسلمين، بل على واقع المسلمين المتخلف والمؤسف في مختلف المجالات.

---

[187] قال رشيد رضا في تفسير "المنار"بعد أن ذكر وجوهاً ثلاثة في تفسير كلمة "كنتم" في آية ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ آل عمران:110: "إذا فسرت كلمة كنتم بغير ما قاله أبو مسلم كانت الجملة شهادة من الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن اتبعه من المؤمنين الصادقين إلى زمن نزولها بأنها خير أمة أخرجت للناس بتلك المزايا الثلاث، ومن اتبعهم فيها كان له حكمهم لا محالة، ولكن هذه الخيرية لا يستحقها من ليس لهم من الإسلام واتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا الدعوى وجعل الدين جنسية لهم، بل لا يستحقها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام مع الإخلاص الذي هو روح الإسلام إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالاعتصام بحبل الله مع اتقاء التفرق والخلاف في الدين". أي أن علّة أن الأمة الإسلامية "خير أمة" هو الأركان الثلاثة: "الأمر بالمعروف" و"النهي عن المنكر" و"الإيمان بالله". وعليه، فإن كل أمر بالمعروف وكل نهي عن المنكر يدخل ضمن وصف الخيرية للأمة – وإني لا أرى أمراً بالمعروف أفضل من دعوة الناس إلى التمسك بمن أمر الله تعالى بالتمسك بهم وهم آل محمد(ص)، ولا نهياً عن المنكر أفضل من دعوة الناس إلى ترك المناهج التي ما أنزل الله بها من سلطان، لأنه بهذا، وبهذا فقط، يمكن للأمة أن تجتمع على الكلمة الواحدة الحق التي لها أن تحقق فيها ليس الخيرية فحسب، بل والقيادة التي تستحقها والتي تنتظرها كأمة تحمل القرآن العظيم منهاجاً معصوماً صحيحاً خاتماً للبشرية. راجع تفسير المنار ج4 تفسير سورة آل عمران، ففيه مناقشات لبعض آراء القدماء في الآية والتي تقوم جلها على فكرة القتال أو تفضيل الجيل الأول مما لا يدخل في الأساس الواضح من ظاهر الآية، وهو الأمر والنهي والإيمان.

[188] لفظة "الشيعة" تشكل مشكلة لمناوئي أتباع أهل البيت(ع) وأعدائهم، وذلك لأنه وردت في الحديث الشريف وتفسير القرآن العظيم بصيغة المدح، بل أعظم مدح يمكن أن تحصل عليه جماعة. فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ البينة:7-8 حديث النبي(ص) أن هؤلاء هم علي(ع) وشيعته، إذ روى الطبري في تفسيره "يقول تعالى ذكره: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى ﴿أولئك

هم خير البرية﴾ يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية. وقد حدثنا ابن حميد، قال: ثنا عيسى بن فرقد، عن أبي الجارود، عن محمد بن علي ﴿أولئك هم خير البرية﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنت يا علي وشيعتك)) – وهو ما نقلته من موقع إسلام ويب، وعليه فمن الواضح أنهم لم يستطيعوا إهماله. وأما السيوطي فقد أخرج في تفسيره الدر المنثور أحاديث النبي(ص) في تحديد أن المقصودين بالآية هم علي(ع) وشيعته: وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: "كنا عند النبي فأقبل علي فقال النبي: ((والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)) ونزلت ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ فكان أصحاب النبي إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية". وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً: ((علي خير البرية)). وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ قال رسول الله لعلي: ((هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين)). وأخرج ابن مردويه عن علي قال: ((قال لي رسول الله: ألم تسمع قول الله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾؟ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جئت الأمم للحساب تدعون غراً محجلين)).

لذا، فلم يجدوا إلا اتجاهين: الأول أن يدعوا أنهم هم شيعة علي(ع)، وهذه وجدوها هم أنفسهم "واسعة" كما يقال، لذا لا يقولها إلا البعض عندما يحتد في النقاش مع الشيعة، أي من باب نفي كل فضيلة عن الشيعة؛ الثاني أن يجدوا للشيعة لفظة أخرى يصفونهم بها ويشتدوا في استخدامها حتى تلصق بهم في أذهان الناس، فوجدوا لفظة "الرافضة"، التي يقولون أنه الوصف الذي أطلق على الذين "رفضوا" قول الشهيد زيد بن الحسين(ع) الذي مدح فيه الشيخين أبا بكر وعمر، وخرجوا من جيشه. وبما أن المقام لا يسع لتوضيح زيف هذا القول، فإن المهم يبقى أن هناك جماعة من المسلمين اسمها "الشيعة"، وأنها "خير البرية" بوصف القرآن حسبما جاء عن النبي(ص)، وبما أن هناك اليوم وقبل اليوم جماعة تعد بمئات الملايين من المسلمين يطلقون على أنفسهم وصف "الشيعة" وأن هذا الوصف لأنهم "يوالون علياً(ع)" الذي ربطه النبي(ص) في تفسير الآية بهم، إذاً فإن الذين يدعون أنهم الشيعة – وليس هناك من يدعيها غيرهم – هم الشيعة المقصودون بالآية الكريمة. أما مسألة الرفض فقد وردت رواية تحمل شكوى الشيعة إلى الإمام الصادق(ع) من أن الناس ينبزونهم بلفظة "الرافضة"، ولكن الصادق(ع) جعلها مدحاً لهم لأنهم – حسب تقريره – رفضوا الباطل، والحمد لله رب العالمين.

[189] "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، ترجمة علي(ع)، ج2 ص442، و"تذكرة الخواص" لسبط ابن الجوزي ص54، وغيرهما

[190] "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ج12 ص289، وفي "مجمع الزوائد" ج9 ص173 بلفظ مشابه

[191] "كفاية الطالب" للكنجي الشافعي ص135

[192] "الكافي" لمحمد بن يعقوب الكليني ج2 ص73

[193] "بحار الأنوار" للمجلسي ج65 باب19 صفات الشيعة وأصنافهم ص156

[194] "نهج البلاغة" ج4 الكلمة 96

[195] روي أن طاووس اليماني رأى الإمام علي بن الحسين(ع) يطوف ذات ليلة، فلما لم ير أحداً أخذ بالدعاء والمناجاة، فكان مما قاله(ع): ((وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز؟ أم مع المثقلين أحط؟ ويلي، كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربي؟!)) إلى أن خر إلى الأرض ساجداً... يقول اليماني: "فدنوت منه، وشلت برأسه ووضعته على ركبتي، وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: ((من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟!)) فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟! ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون – أبوك الحسين بن علي، وأمك فاطمة الزهراء، وجدك رسول الله! فالتفت إلي وقال: ((هيهات هيهات يا طاووس، دع عنك (أو عني) حديث أبي وأمي وجدي – خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾؟ والله لا ينفعك غداً إلا ما تقدمه من عمل صالح))" راجع "بحار الأنوار" للمجلسي ج45 باب5 ص80 تاريخ السجاد مكارم أخلاقه وعلمه.

[196] أمالي الطوسي ص576

[197] "صفات الشيعة" للشيخ الصدوق حديث 40

[198] "الكافي" كتاب الإيمان باب الورع ج2 ص77

[199] عن الإمام علي الرضا(ع)، "عيون أخبار الرضا" للشيخ الصدوق ص30

[200] عن الإمام علي(ع)، "مشكاة الأنوار" الفصل 12 ص46

[201] عن الإمام جعفر الصادق(ع)، نفسه ص134، وأمالي الصدوق ص484

[202] عن الإمام الحسن العسكري(ع)، "تحف العقول" ص448

[203] الرواية عن أبان بن تغلب وكيف أمره الإمام جعفر الصادق(ع) بقطع الطواف وإجابة الرجل، وتكمل الرواية بسؤال أبان عن حق المؤمن على المؤمن، ويجيبه الإمام(ع): ((يا أبان دعه لا ترده)) ويكرر أبان السؤال ويكرر الإمام(ع) الجواب، حتى قال(ع): ((يا أبان تقاسمه شطر مالك!)) ثم نظر إلى أبان فرآى ما دخله – أي لم يبدو مرتاحاً لذلك –، هنا قال(ع): ((يا أبان أما تعلم أن الله عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ ... أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد إنما أنت وهو سواء إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الاخر!)) "الكافي" للشيخ الكليني ج2 ص171.

[204] "الكافي" للكليني كتاب الحجة باب أنه ليس شيء من الحق في يد الناس إلا ما خرج من عند الأئمة، حديث 5

[205] نفسه حديث 2

[206] كما في سنن أبي داوود ج27 كتاب المهدي، والمستدرك للحاكم ج4 ص557 وغيرها، وأسد الغابة لابن الأثير ج1 ص259، وكثير غيرهم أخرجوا أحاديث المهدي المنتظر(ع) وبشارة أنه يحقق القسط والعدل بعد الظلم والجور.

[207] سئل الإمام الصادق(ع) عن العلامات ما قبل الظهور فقال(ع): «هلاك العباسي، وخروج السفياني، وقتل النفس الزكية، والخسف بالبيداء، والصوت من السماء» فسأل السائل: "جعلت فداك، أخاف أن يطول هذا الأمر؟" فقال: «لا، إنما هو كنظام الخرز يتبع بعضه بعضاً» "الغيبة" لمحمد بن إبراهيم النعماني ص273–274.

[208] "الإحتجاج" للطبرسي ج2 ص322

[209] نفسه

[210] نفسه ص324

[211] وسائل الشيعة ج11 ص30، وهو حديث مشهور روي في غزوة خيبر أو عندما بعث النبي(ص) علياً(ع) إلى اليمن، وفي بعض رواياته لا توجد كلمة "وغربت"، كما أن في بعض رواياته «أحب إليك من حُمر النّعم».

[212] حديث مشهور رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم؛ وتتمة الحديث ((كلها في النار إلا واحدة)). على أني لا أتفاعل كثيراً مع هذا الحديث، أولاً لأن عدد الـ 73 فرقة غير متيقن، ولذلك شرّق الباحثون فيه وغرّبوا، كل يريد إثباته أولاً كي يصل إلى إثبات أنه

وجماعته من الفرقة الناجية؛ ثانياً لأني أجده من الخطأ، إن لم يكن من المحرم، الحكم على الآخرين – كائناً من كانوا – بالنار والخسران في الآخرة لأن هذا من مختصات المولى عز وجل. واللطيف في تتمة للحديث هي أن النبي(ص) سئل عن هذه الفرقة من هم؟ فقال: ((الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي))، وهذا ما لا يمكن قبوله – بالنسبة لي – لأن النبي(ص) لا يحتاج إلى جماعة معه كي تتصف فرقته بأنها على الحق أولاً، ولأن الأصحاب كانوا على درجات متفاوتة بحيث أن بعضهم ارتكب الكبائر وحتى رمي بالنفاق ثانياً.

لذا، فإن حديث "الطائفة المنصورة" هو الذي أجده يتناسب مع الإطار الإسلامي الذي يبشر ولا ينفر، كما يتناسب مع الواقع في الأمة من حيث ثبات مدرسة أهل البيت(ع) على الدرب على الرغم من إعراض الناس عنها.

[213] روى الحديث العديد من المحدثين بألفاظ متقاربة، منهم البخاري في صحيحه ج4 ص252 بلفظ ((لايزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون))، ومنهم مسلم النيسابوري في صحيحه ج3 ص1523 بلفظ ((لاتزال طائفة من أمتي...حتى يأتي أمر بالله وهم ظاهرون))، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ج2 ص321 بلفظ ((عصابة على الحق ولا يضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله))، وابن حِبّان في مسنده ج8 ص294 بلفظ ((لايزال على هذا الأمر عصابة على الحق، لايضرهم خلاف من خالفهم)).

وحديث الطائفة المنصورة هذا هو الذي تم تحريفه لفظاً أو معنى لجعل الطائفة المنصورة أهل الشام أو أهل بيت المقدس، الأمر الذي نسمعه الآن بكثرة لأن الفرقة الوهابية تسعى لجعل الشام منطلقاً لضرب أتباع أهل البيت(ع). ففي مسند أحمد ج4 ص97 و ص101 رواية عن معاوية بن أبي سفيان (وأنعم به من ثقة!) قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولن تزال من هذه الأمة أمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس))"، وفي رواية أخرى أن رجلاً اسمه مالك السكسكي قام وقال: "يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام"، فقال معاوية ورفع صوته: "هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول وهم أهل الشام" (يعني كما تقول في بغداد مستخدمين لعبة كرة الطائرة: واحد يرفَع والآخر يكبس!).

إلا أن في بعضها – كما في مسند أحمد أعلاه – يتحفظ معاوية عن الإطلاق فيقول: "وإني لأرجو أن تكونوا هم يا أهل الشام!"

وهذه الروايات رواها البخاري ومسلم والدارقطني وغيرهم.

أحياناً جاء التحريف بزيادة تفسيرية، ثم اعتمدت بجعلها من حديث النبي(ص). ففي مسند الإمام أحمد ج4 ص429 وغيره رواية مشابهة تنتهي بقول قتادة "لا أعلم أولئك إلا أهل الشام"!

بعدها صارت تروى في بعض المصادر (كحلية الأولياء ج9 ص307) أن النبي(ص) هو الذي قال أنهم أهل الشام.

وتتم الحلقة بأحاديث اليهود الذين أسلموا وصاروا يدخلون ما سمي بالإسرائيليات في تفسير القرآن وفي الحديث الشريف، لأنهم يفضلون فلسطين على الحجاز كما هو معروف. وإلا كيف يكون ملك النبي(ص) بالشام على قول كعب الأحبار الذي زعم أنهم يجدون النبي(ص) مكتوباً "محمد رسول الله ... ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام" (سنن الدارمي ج1 ص4) مع أنه(ص) حكم على ملك الشام أنه ملك عضوض في الحديث الشهير الذي يؤمن به جميع المسلمين؟

أما الحقيقة فهي أن حديث "الطائفة المنصورة" لا ينطبق مطلقاً إلا على شيعة آل محمد(ص)، وذلك بلحاظ الآتي:

هذا الحديث هو من الأحاديث الذي تدعيه كلُّ طائفة لنفسها، فأهل السنة يقولون أنهم هم، والوهابية كذلك، والشيعة الإمامية كذلك، وهكذا. وهذا أمر منطقي لأنه إن لم تعتقد طائفة أنها هي الطائفة المحقة لخرجت مما فيه والتحقت بالطائفة التي تعتقد أنها المقصودة بالحديث.

إلا أنه من الصعب القول أن الحديث يخص أهل السنة، لأنه من غير المعقول أن يصف الحديث جمهور المسلمين الذين ربما يزيد على ثلاثة أرباعهم أنه "طائفة"، لأن الأكثرية لا يضرها، عادة، من خالفها، وهو ما يقوله أهل السنة دائماً – أنهم على الحق لأنهم الأكثرية.

وأما الوهابية فلا شك أنهم قلة قليلة، ربما هم الأقل من بين طوائف المسلمين، وإن كانوا اليوم قد زادوا على غيرهم كالإباضية المتواجدين حصراً في عُمان وبعض أنحاء الجزائر، ولكن الذي يجعل الحديث ممتنع التطبيق عليهم هو أنهم لم يكونوا موجودين منذ زمان النبي(ص) والحديث يقول «لا تزال طائفة من أمتي ...» ما يوحي بوجود هذه الطائفة منذ زمانه(ص) وإلا لقال "ستكون هناك طائفة" أو "ستأتي طائفة" أو شبهه. بل أن هناك ما يشير إلى أن النبي(ص) أدان الوهابية قبل ولادتها كما في وصفه لذي الخويصرة التميمي: «إن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة»، وغيره من أحاديث في صفاتهم بحيث طبقها العديد من علماء أهل السنة على الوهابيين عندما بدأت فتنتهم أيام الدولة السعودية الأولى بوجود داعيتها محمد بن عبد الوهاب.

وأما الشيعة فهم، خلافاً للفريقين أعلاه أهل السنة والوهابية، يجمعون بين الخصلتين: كونهم أقلية وبالتالي يصح تسميتهم "طائفة" وكونهم موجودين منذ عهد النبي(ص) وذلك بإخبار النبي(ص) بوجود جماعة هم "علي وشيعته" عندما فسر للناس قوله تعالى في سورة البينة: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ ولما كان علي(ع) موجوداً في زمن النبي(ص) فإن شيعته بدءوا بالظهور منذ ذلك العهد كما نص على ذلك بعض علماء أهل السنة، وأيضاً بوجود

صحابة مشخّصين كانوا معروفين بتشيعهم لعلي(ع) منهم أبو ذر والمقداد وعمار وحذيفة وبريدة الأسلمي وأبو أيوب وخالد بن سعيد بن العاص وسهل بن حنيف وابن عباس والكثير غيرهم. إذاً، الشيعة طائفة لأنهم ليسوا السواد الأعظم من المسلمين وهم موجودون منذ عهد النبي(ص).

الأمر الثاني المهم في هذا الحديث هو قوله(ص): «لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم»، فإن ما نشهده اليوم من تسليم الكثير من أهل السنة – نتيجة جهل العامة منهم من جانب وإغداق بعض الأموال على بعض العلماء منهم من جانب آخر – القياد للوهابيين يخرج الحديث من أي انطباق ممكن على الوهابيين كونهم أقلية وذلك لأنهم صاروا غير مخذولين من الأكثرية السنية التي لا تعلم حقيقتهم. فبعد أن حكم علماء السنة بالضلال على الوهابيين الأوائل منذ زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل أستاذه ابن تيمية قبله بقرون، صار اليوم لا يقول بذلك إلا القليل جداً منهم، وبالتالي لم يعد الوهابيون طائفة خذلها الآخرون بل صاروا يتحكمون بغالبية المسلمين.

في حين أن هذا القسم من الحديث منطبق خير انطباق على الشيعة الإمامية الذين بدأ خذلان الخاذلين لهم بخذلان أئمتهم(ع) بدءاً بعلي(ع) واستمر عبر القرون، ولكنهم لم يضرهم ذلك في الخارج لأنهم حافظوا على تماسكهم وتماسك عقيدتهم الإسلامية رغم قسوة المحن المتتابعة، وكذلك لن يضرهم بإذن اللّه بقبول اللّه تعالى لهم بعد أن تمسكوا بما أمر به اللّه ورسوله(ص) ولم يحيدوا عنه، القرآن والعترة الهادية، فلم يؤثر في عقائدهم خذلان الخاذلين ولا خلاف المخالفين رغم تأثير ذلك فيهم بإزهاق النفوس وسلب الحقوق والمحاصرة والتكذيب والتهم الشنيعة في كل حين.

تبقى نقطة في غاية الأهمية، وهي التوافق اللفظي بين حديث الطائفة المنصورة وبعض صيغ حديث الإثني عشر إماماً. فقد روى الطبراني في "المعجم الكبير" ج2 ص213 عن جابر بن سمرة عن النبي(ص) قال: ((يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيِّماً لايضرهم من خذلهم))، وفي ج2 ص265 ((لايضرهم عداوة من عاداهم)). فهل تجد توافقاً أشد من هذا في وصف أئمة إثني عشر لا ينطبق عددهم إلا على أئمة أهل البيت(ع) وصف أتباع هؤلاء الائمة، وهم الشيعة، في كونهم أقلية وفي كونهم مخذولين من الناس، منصورين بالحق الذي معهم. والحمد لله رب العالمين.

وتجدر ملاحظة أخيرة بخصوص حديث "الطائفة المنصورة"، وهي أن الحديث لا يحكم بسوء المصير لمن ليس من ضمن الطائفة المنصورة كما يريد أن يفهم البعض ممن يطبق الحديث على نفسه وجماعته، وإنما يحكم بأن هذه الطائفة هي الطائفة المحقة التي لا يضرها المخالفون. وعليه ينبغي للمسلمين من جميع الطوائف أن لا ينزعوا إلى التكفير لأن الأمر ليس هكذا، لا سيما وأن أغلبية المسلمين لا يعرفون غير ما تعلموه ولا يمتلكون الأدوات الذهنية أو العملية للتحقيق والنظر والتحليل. فليكن المسلمون راغبين في خلاص الأمة بدلاً من خسرانها وشقائها في الآخرة.

[214] وهو حديث مشهور رواه المحدثون بروايات عديدة متقاربة اللفظ، منهم الإمام أحمد في مسنده ج3 ص94، ومسلم في صحيحه ج16 ص219 كتاب العلم، والبخاري في صحيحه ج2 ص171 كتاب الأنبياء، والترمذي في سننه ج9 ص27، وغيرهم.

[215] حديث الثقلين من أعظم الأحاديث التي تأمر باتّباع عترة النبي(ص)، لأنه يجعل التمسك بالقرآن وحده غير كاف لأن القرآن يحتاج إلى المفسر العالم بمحكمه ومتشابهه وخاصّه وعامّه ومطلقه ومقيّده، وبنفس الوقت الذي عنده التقوى الكاملة العاصمة من أي انحراف نتيجة الهوى أو نزع الشيطان، وهذا غير متحقق إلا في الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بنص الكتاب والذين أخبر النبي(ص) بأنهم المأمونون تماماً على الشريعة. راجع الملحق لنصوص الحديث وبعض مصادره.

[216] راجع مصادر آية المودة في الملحق.

كلمة أخيرة

إحترام العقل وتفعيل التقوى واستثمار الطاقات

في الفصل الأول بينت كيف أن بداية الخلل في مسيرة الأمة الإسلامية كان في الواقع انحرافاً عن الخط الإلهي الذي حدده الكتاب المجيد والسنة النبوية؛ وأن هذا الخلل-الانحراف بدأ منذ لحظة وفاة النبي(ص)، ولكنه احتاج إلى بضع سنين كي يبدأ بالظهور بشكل لا تقبله الأمة، ما أدى إلى ثورتها على الخليفة ومقتله فلم تتسق الأمور للخليفة بعده علي(ع) ولا لجميع من جاء بعده من حكام وملوك، حيث كانت مناطق من الأمة الإسلامية، دائماً، تخرج عن سلطة الخلافة المركزية، وصولاً إلى التشرذم الحالي.

في الفصل الثاني رويت بعض اللقطات من سيرة أئمة أهل البيت(ع)، وقارنت بينها وبين سيرة غيرهم من الحكام، ما يبين الفارق في درجة الالتزام بالشريعة ودرجة العلم بها والإمكانيات التي أعطاها الله تعالى لهؤلاء وهؤلاء.

لأصل إلى الفصل الثالث إلى مواجهة هذه الحقائق بطرح ما أراه من مسؤولية المسلمين، من أتباع أهل البيت(ع) ومن غيرهم، وإلا يصبح الكلام مقتصراً على النظر والتحليل والمقارنة دون أثر على الواقع المعاش.

هذا يقود إلى ما أقترحه – مما ضمنته الفصل الثالث، ولكن لا بأس بتسليط الضوء على جوانبه الثلاثة: العقل والنفس والطاقات الأخرى.

أقترح أن ينظر القارئ في هذا البحث وهو غيور على عقله، لا يسمح ببيعه ولا تأجيره حتى لدقيقة واحدة لآخرين لا يدري مقدار علمهم ولا مقدار تقواهم ولا ما يحركهم خلف الكواليس، وهي كواليس أكثرها مظلم لا تنتج إلا الشر. وهذا ما أسميه "إحترام العقل".

وأن ينظر في هذا البحث وهو ملتفت إلى نفسه وزواياها العميقة لكيلا يضع حواجز أمام الحقائق الواضحة أو النتائج البينة التي يستهدف الأخذ بها – بغض النظر عن درجة ذلك: أهو التفهّم فحسب أم الانفتاح أم الاصطفاف أم الاندكاك – لملمة جراح الأمة والوقوف بوجه أعدائها ثم النهوض بها. وهذا أسميه "تفعيل التقوى" لأن التقوى هي التي تعين الإنسان على نفسه إذا ما وجدها عصيّة على تقبل ما يراه واضحاً من جانب، وسامياً نافعاً من جانب آخر.

ثم ينظر في إمكانياته الذهنية والبدنية في نطاق العلم والعمل والعلاقات لتوظيفها في خدمة الأمة، بحسب درجة أخذه بالحقائق التي عرفها؛ فإن أيسر درجاته هو تفهّم مواقف الآخر بعد فهم منطلقاته، وهذا يصب في تحييد عداء داخلي لا مبرر له، بل هو محرم شرعاً لأنه لا يستند إلى الحق والصدق ولأنه يخدم أعداء الأمة. وهذا أسميه "إستثمار الطاقات"، مهما كانت محدودة أو كانت موجودة في ظروف مضادة، فإن الله تعالى يجعل في الطيب القليل أعظم الثمرات. المهم هو ما أحصده لدار البقاء – قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللّهَ ولتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لغَدٍ، واتّقُوا اللّهَ، إنَّ اللّهَ خَبيرٌ بما تَعملُون﴾ الحشر:18.

ملحق

الغاية من هذا الملحق هو إعطاء فكرة عامة موجزة عن عقيدة أتباع أهل البيت(ع) في الأئمة من ذلك البيت الطاهر، لأن البعض من المسلمين غير الشيعة لا يكاد يعرف شيئاً عن الشيعة، فإن عرف فهي صورة مشوهة رسمت له من أعداء الشيعة؛ وبما أن هذا البحث الصغير يريد أن يتصور كيف كانت أحوال الأمة ستكون لو أن أئمة أهل البيت(ع) كانوا على رأس السلطة في الدولة الإسلامية فإنه يلزم التعريف بهم، ليس كأشخاص فحسب (وإن كان حتى هذا مجهول لأغلبية المسلمين)، لكن أيضاً كدور رسمه لهم المولى عز وجل وبينه في كتابه الكريم وحديث نبيه محمد(ص).

(1) عقيدة الشيعة في أهل البيت(ع)

أولاً: معنى الشيعة هو الأتباع والأنصار والأعوان، وقد اختص هذا اللفظ بمن تولى علي بن أبي طالب والأئمة من ولده وأقر بإمامتهم وانقطع إليهم في أحكام الشريعة من عقائد وفقه.

ثانياً: بدء التشيع ليس كما يعتقده البعض أنه كان بفعل مؤامرة يهودية أو فارسية أو ردة فعل على مقتل الحسين(ع)، لأن ظهور الشيعة لفظاً وأشخاص

بدأ على عهد النبي(ص)، فكما ورد تفسير الآية 7 من سورة البينة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُوْلئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ إن الآية لما نزلت قال(ص) لعلي: ‹‹هم أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوك غضابى مقمحين›› (الصواعق المحرقة لابن حجر وغيره). وأخرج الدارقطني عنه(ص): ‹‹يا أبا الحسن أما أنك وشيعتك في الجنة››.

وبدء التشيع منذ العهد النبوي يعني وجود صحابة مشخصين كانوا شيعة لعلي(ع). وبالفعل، فقد "عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله(ص) مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والإتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له، ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج، قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها لمفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة" (محمد كرد علي في كتابه خطط الشام). هذا، ومن الصحابة المعروفين الكثير من الشيعة كأبيّ بن كعب والمقداد بن الأسود وابن عباس وسهل وعثمان ابني حنيف وجابر بن عبد الله، كما عرفت أم المؤمنين أم سلمة(رض) بتشيعها الصريح للإمام علي(ع) وثباتها على ذلك. (وكان أبو ذر من أشد المجاهرين بذلك حتى كان يقول: "أدّبوا أولادكم على حب علي أبي طالب، ومن أبى فانظروا في شأن أمه".)

أما عقيدة الشيعة في أهل البيت(ع) فإنها – كسائر عقائدها في الله تعالى وتوحيده وعدله ونبوة النبي(ص) وكماله وعصمته التامة وسائر أحواله والمعاد الأخروي وتفاصيله – تأخذها من النبي(ص) وأئمة أهل البيت الإثني عشر(ع) إذ أنهم وحدهم المؤهلون لنقل التفسير الصحيح للقرآن والسنة النبوية الشريفة لكونهم مطهرين من الكذب ومن الخطأ في التبليغ، ولا يأخذون من أي أحد خارج هذه الدائرة. وكان الأئمة(ع) يصرحون دوماً تنبيهاً للمسلمين أن ما يتفوهون به إنما هو من حديث رسول الله(ص)، فكان أحدهم يقول: ‹‹حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث علي وحديث علي حديث رسول الله››.

فيما يخص عقيدة الشيعة في الإمامة، فإنها عندهم أصلاً من أصول الدين (مع التوحيد والعدل الإلهي والنبوة والمعاد، وبذا فإنها تتميز عن أهل السنة بعقيدتي العدل الإلهي والإمامة). والأدلة على ذلك عقلية ونقلية أيضاً. أما دليل العقل فإنه لطف من الله تعالى، كما هو حال النبوة، فإن النبوات تبليغ عن الله تعالى ونظم لحياة الناس مدة حياة النبي، أما بعد ذلك فلا بد للناس ممن يعلمهم دينهم تبليغاً عن النبي نفسه بإظهار الأحكام في المسائل التي لم تظهر في حياة النبي(ص)، وإلا ضاعت جهود الأنبياء وراحت هدراً إذ سيتسلق الظلمة وعباد الدنيا إلى مراكز السيطرة على مقدرات الناس فيسيروا بهم بعيداً عن المنهج الرباني، وهو ما حصل مع جميع الأمم الأخرى. هذا بصفة عامة، أما في حالة الإسلام فالأمر أشد أهمية بما لا يقاس لأن الشريعة المحمدية هي الخاتمة، وأن محمداً(ص) خاتم الأنبياء فلن يكون بعده نبي يعدل

المسيرة إن اعوجّت، فكان لا بد من أن يعين الله تعالى أفراداً يكونون قوّاماً على الشريعة لمنع الانحراف، ليس فقط لفترة محدودة، وإنما لفترة طويلة كفيلة بإخراج جميع الأحكام الشرعية كلما يحين وقت ظهور مسائلها في المجتمع إضافة إلى ترسيخ العقائد الحقة وتركيز المفاهيم والقيم الأخلاقية العليا للدين وهو ما يتطلب عشرات السنين لا تستوعبها حياة النبي القصيرة.

وأما الدليل النقلي فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز لإبراهيم(ع): ﴿إني جاعلك إماماً﴾ البقرة:124، ويقول: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ السجدة:24، ويقول: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة﴾ القصص:5، وغيرها. فإن الله تعالى هو الذي يجعل الأئمة بأمره، وليس كما يشاء الناس لأن الناس لا يعرفون ما يصلحهم في هذا الأمر الخطير ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة﴾ القصص:68. كما ورد في الحديث ما يؤكد هذه العقيدة الضرورية. بل إن الأمة أجمعت على وجوب تنصيب الإمام على الناس حتى أن أبا بكر نصّب عمراً عندما جاءته الوفاة، وعندما احتضر عمر جاءته عائشة فقالت له: "لا تدع أمة محمد هملاً" تريده أن يعيّن خليفة من بعده، ثم عيّن ستة الشورى ليختاروا خليفة. وجرى الحال – في تعيين الخليفة أو الحاكم التالي – على هذا في جميع العصور، في أمة الإسلام وفي غيرها، لأن ذلك مما لا يختلف عليه اثنان من العقلاء: ضرورة عدم ترك الناس يموجون في بعض بعد غياب قائدهم، فما بالك بذلك القائد الفريد محمد(ص)؟

أما فيما يخص شخصيات الأئمة فإن الشيعة تعتقد بأن النبي(ص) قد عيّن، بأمر الله تعالى، علي بن أبي طالب إماماً وخليفة من بعده مباشرة وأن يعقبه ولداه الحسن ثم الحسين، ثم يعقب الحسين ولده علي السجاد فولده محمد الباقر فولده جعفر الصادق فولده موسى الكاظم فولده علي الرضا فولده محمد الجواد فولده علي الهادي فولده الحسن العسكري فولده محمد المهدي. فهؤلاء إثنا عشر إماماً صرح النبي(ص) بخلافتهم بعده كما جاء في صحيح البخاري عنه(ص): «لا يزال هذا الأمر - أي الإسلام - أو يكون عليهم إثنا عشر خليفة كلهم من قريش» وفي رواية - ليست في البخاري - «كلهم من بني هاشم». وعدد 12 لا ينطبق كما هو واضح على الخلفاء الراشدين الأربعة ولا خلفاء بني أمية أو بني العباس فهم أكثر من ذلك، ولا بالطبع على سلاطين آل عثمان الذين ليسوا من قريش أساساً، بل ينطبق فقط على أئمة أهل البيت الذين تعتقد الشيعة بإمامتهم وخلافتهم وأنهم المرجع الوحيد للأمة بعد النبي(ص).

وقد نزل القرآن العظيم بوجوب موالاتهم ومتابعتهم أبرزها الآيات الكريمة التالية:

آية الولاية قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة:55-56، حيث نزلت، بإجماع المفسرين كالسيوطي والطبراني والزمخشري والكنجي الشافعي والرازي والقرطبي وسبط بن الجوزي ومن المتأخرين رشيد رضا والآلوسي، عندما

تصدق علي(ع) بخاتمه أثناء ركوعه في صلاته في مسجد النبي(ص) للرجل الذي دخل يسأل الناس صدقة فلم يعطه أحد شيئاً إلا علي(ع) فنزلت الآية.

آية التطهير قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب:33، وقد نزلت، كما أورد مسلم وأحمد بن حنبل والسيوطي والطبري وغيرهم، بعد أن جمع النبي (ص)، تحت كساء أو عباءة خيبرية، معه علي وفاطمة والحسن والحسين(ع)، ثم تلا الآية قائلاً: ‹‹اللهم إن هؤلاء أهلي››. ولكيلا يدع مجالاً لأحد أن يدعي أن الآية شملت أزواجه (ص) فإنه جذب طرف الكساء عندما أرادت أم سلمة(رض) أن تدخل معهم وقال(ص) لها: ‹‹إنك من أزواج النبي وإنك إلى خير››.

آية المودة قوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ الشورى:23 (أنظر فيما يأتي).

أما الأحاديث الشريفة، فقد وردت روايات لا تحصى في فضائلهم ومنزلتهم السامية على الناس جميعاً ووجوب إتباعهم والائتمام بهم. مثال ذلك:

- قوله(ص) لعشيرته مشيراً إلى علي(ع)، كما أخرج الطبري والسيوطي وغيرهما: ‹‹إن هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا››. كان ذلك عندما دعا بني عبد مناف امتثالاً لأمر الله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الشعراء:214، فلم يستجب أحد لطلبه في الإيمان على أن

يكون أخاه ووصيه وخليفته من بعده إلا علي، أي أن علياً(ع) كان خليفته منذ أول أيام الدعوة الإسلامية.

- قوله(ص) المشهور لعلي(ع): ‹‹أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي›› وهذا يعني أن جميع منازل هارون(ع) – ومنها الاستخلاف في قومه – صارت لعلي(ع) ما عدا النبوة. وقد أجمع المسلمون على هذا الحديث كالبخاري ومسلم وأحمد والحاكم والعسقلاني وابن الأثير وعشرات غيرهم.

- حديث الثقلين الشهير وهو قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، وإن اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› (أنظر فيما يأتي).

- قوله(ص) الذي رواه علماء أهل السنة: ‹‹الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا›› أي أنهما(ع) إمامان عند الله سواء اجتمع عليهما الناس فقاما بالمسؤولية أو انصرف عنهما الناس فقعدا، خارجياً، عنها.

- قوله(ص) للحسين(ع): ‹‹أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم›› وقائمهم أي الذي سيقوم بالإمامة في آخر الدهر وهو المهدي المنتظر(ع). وقد اعترف بتصريحه(ص) بأسماء الأئمة من ذريته جماعة من علماء أهل السنة كابن حجر في الصواعق المحرقة وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة.

- بيعة الغدير: وهذه تمثل البيعة الرسمية للإمام علي(ع)، وقد جرت يوم 18 من ذي الحجة سنة 10 للهجرة (أنظر ما يأتي).

ولو دقق أي إنسان في شأن علي(ع) لوجد أن الله تعالى كان يعده لهذا الأمر. فهل مصادفة أن يولد في الكعبة وهو ما لم يحصل لأحد قبله ولا بعده؟ وهل مصادفة أن ينتقل وعمره 3 سنين فحسب من بيت أبي طالب إلى بيت ابن عمه محمد(ص) وخديجة(ع) فلا يسجد لصنم، بل يتربى في أطهر بيت في الدنيا؟ وهل مصادفة أن يقبل النبي(ص) إسلامه وهو في العاشرة في حين لا يقبل إسلام أحد إلا بعد البلوغ؟ وهل مصادفة أن يبيت في فراش النبي(ص) ليلة الهجرة مفدياً ابن عمه(ص) بنفسه؟ وهل مصادفة أن يرفض النبي(ص) خطبة كبار صحابته لبضعته الزهراء(ع) قائلاً: «أنتظر فيها أمر السماء» ثم يزوجها علياً(ع)؟ وهل مصادفة أن يجعل الله تعالى ذرية نبيه(ص) من صلب علي(ع)؟ وهل مصادفة أن يقوم علي(ع) بذلك الدور الفريد على عهد النبي(ص) في حروبه وغزواته كما في أيام سلمه وصلحه؟ وإن كان أي من ذلك مصادفة، فهل يمكن الجمع بين كل هذه المصادفات؟! هذا، مع أن المؤمن يوقن أن ما من شيء إلا تحت سمع الله وبصره فكيف بما يخص كتابه العزيز والنبوة الخاتمة.

هذا، ويعتقد الشيعة أن الأئمة الإثني عشر(ع) معصومون لنفس الأسباب في أن الناس يجب أن يكونوا مطمئنين إلى التبليغ، فلا يصح أن يكونوا ليسوا معصومين لأنهم من الممكن أن يخطئوا أو يكذبوا أو يغيروا، وهذا دليل العقل. أما دليل النقل فهناك أدلة كثيرة، إلا أن أبرزها هو آية التطهير ﴿إنما

يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ الأحزاب:33 الواردة في أعلاه والصريحة في أنهم(ع) مطهرون من الرجس وهو وسوسة الشيطان وأحابيله ومكائده ومن ضعف النفس الأمّارة بالسوء. وقد كانت سيرتهم عليهم السلام، فيما حدث عنهم التاريخ، دليلاً على عصمتهم إذ لم يرتكبوا معصية ولا إثماً ولم يتوقفوا في مسألة مطلقاً بل كان السائل يجد الجواب عندهم حاضراً دون مراجعة، هذا على الرغم من كثرة أعدائهم ولا سيما من الحكام والمنافسين من العلماء والفقهاء.

(2) حديث الثقلين

إن حديث الثقلين حديث مفصلي في دين الإسلام لأنه يقطع بأن الالتزام بالقرآن الكريم دون المفسر المؤتمن عليه لا يحصن من الضلال والانحراف. وبالفعل، فإن الدولة الإسلامية لما أدارت ظهرها للمفسر المؤتمن المعصوم فإنها ضلت وانحرفت وأوصلتنا إلى ما نحن فيه، وإلا فإن اللّه تعالى لم يكن يعلم بأن الأمة تحتاج إلى مؤتمن مشخص معين من قبله تعالى – حاشاه سبحانه.

أما نص حديث الثِّقلَين فهو قول النبي(ص): «أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به – فحث على كتاب الله

ورغب فيه – ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي›› صحيح مسلم رواية 4425.

وورد الحديث بألفاظ مختلفة كقوله(ص): ‹‹يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي›› صحيح الترمذي رواية 3718، والنسائي ص96 رواية 79، ومسند أحمد الروايات 10681 و 10707 و 10779 و 11135 و 20596، وذلك بألفاظ مختلفة قليلاً، وسنن الدارمي رواية 3182، وغيرهم.

ومنها قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم رواية 3720، والمتقي الهندي في كنز العمال ج1 ص172 حديث 872 و 873.

وقد روى مسلم هذا الحديث الحاسم في روايات أربع، قال في إحداها أن النبي(ص) قال الحديث في "غدير خُمّ" (أنظر حديث الغدير فيما يأتي).

ولأن لفظة "أهل البيت" وردت في آية التطهير التي كانت في سياق الحديث عن أزواج النبي(ص) فإن البعض اختلط عليه الأمر، كما روى مسلم في إحدى هذه الروايات عن زيد بن أرقم الذي قال أنه سمع النبي(ص) يقول: ‹‹ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة››... فسألوه: "من أهل بيته؟

نساؤه؟" فأجاب زيد موضحاً: "لا، وأيم الله! إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها – أهل بيته أصله، وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده".

إن حديث الثقلين، الذي رواه ما يقرب من عشرين صحابياً، أعده شخصياً أهم الأحاديث التي ترسم دور أهل البيت(ع) بشكل متكامل. فلو قرأنا الحديث مرة واحدة، ولو بشكل بسيط، فإننا نجد أن النبي(ص) أعلن للأمة حقيقة الأئمة من أهل بيته ودورهم ومسؤولية الأمة تجاههم والموقف الذي سيكون منه(ص) في هذا الشأن. فهو يترك في الأمة في سفره الذي لا عودة معه، الأمرين التاليين:

- كتاب الله الذي فيه الهدى إلى الحق والنور من الظلمات، آمركم أن تعملوا به ولا تحيدوا عن أوامره ونواهيه بما هو التمسك الحقيقي

- وأهل بيتي، من تعرفونهم بينكم علي وفاطمة والحسن والحسين، أطلب منكم أشد ما يكون الطلب أن تضعوا الله نصب أعينكم في تعاملكم معهم

والآن كيف التعامل معهم؟ تجيب عليه الروايات الأخرى...

‹‹ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض››، ‹‹وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض››، ‹‹فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض››...

ماذا يعني أنهما "لن يتفرقا" أو "لن يفترقا"، وماذا يعني استمرار ذلك حتى يوم القيامة "حتى يردا علي الحوض"؟ هل أنهما لا يتفرقا

فيزيائياً، أي ماديّاً؟ لم يقل أحد بهذا لأنه لا معنى لأن يبقى أهل البيت(ع) مع القرآن في التصاق مادي حتى بعد وفاة كل منهم وإلى ما بعد البعث والنشور. إذاً، لن يتفرقا بمعنى أن أهل البيت(ع) لن يكونوا بعيدين عن القرآن مطلقاً، وهذا يعني أنهم لن يحيدوا عن القرآن قيد أنملة. أي أن عملهم بالقرآن الكريم سيكون تاماً كاملاً. فمن يقوى على ذلك غير المعصوم الذي لا يمكن أن يرتكب الخطأ ولا الخطيئة، وذلك لعصمته من الذنب ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ ولعلمه بكل ما يحتاجه في وظيفة إمامته ﴿ولكل قوم هاد﴾.

هل يمكن لأي إنسان له أدنى معرفة باللغة أن يفهم من هذا الحديث، بصيغه المختلفة، شيئاً آخر؟ هل هناك مجال لفهم آخر غير هذا؟ وإذا كان هذا الحديث قد أخرجه مسلم في صحيحه، وأخرجه أصحاب الصحاح والأسانيد من المحدثين، ورواه المفسرون، وذلك عما يقرب من عشرين صحابياً، ناهيك عن التابعين الذين رووه عنهم، فهل يبقى هناك عذر لأي أحد أن لا يضع هؤلاء الصفوة من آل محمد(ص) في موقعهم المتميز عن غيرهم من الناس، كما هو تميز كتاب الله تعالى؟

وإذا كان التمسك بكتاب الله من الأمور البديهية عند المسلمين فإن حديث الثقلين يجعل التمسك بأهل البيت(ع) بديهياً أيضاً. ولكن النبي(ص) لم يترك ذلك للف والدوران، لذا جاءت الأحاديث بألفاظ "التمسك" كأمر واضح من النبي(ص). ففي حديث المستدرك (ج3 ص109) يقول(ص): «أيها الناس اني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي»،

فالأمن من الضلال هو في "اتباعهما" لا القرآن وحده. ومثل ذلك ما رواه السيوطي الشافعي (الدر المنثور ج2 ص6)، رواية عن طبقات ابن سعد ومسند احمد بن حنبل ومعجم الطبراني، أن النبي(ص) قال: ‹‹أيها الناس إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، أمرين احدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والارض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض››.

والمسألة ليست متروكة للناس، وإنما هو أمر واضح، بلحاظ:

أولاً: الحث على التمسك بكتاب الله، وبالتالي التمسك بمن جعلهم عدلاً للكتاب

ثانياً: قوله ‹‹أنظروا كيف تخلفوني فيهم›› أو ‹‹فإني سائلكم عن إثنين...››، فإنه يقول للأمة إنه سيطلع على كيفية تعاملهم مع الثقلين، وسيسألهم عنه يوم القيامة.

(3) حديث وبيعة الغدير

عندما رجع النبي(ص) من حجة الوداع في موضع يسمى غدير خم في الجحفة ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكان النبي(ص) قد رجع مع عشرات الألوف من المسلمين من مهاجرين وأنصار ومن قبائل العرب التي أسلمت في فتح مكة قبل عامين من ذلك والتي جاءت معه في موسم الحج، نزل جبريل(ع) بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة:71، وكانت أحكام الإسلام قد نزلت جميعها (باستثناء آية أو آيتين في الميراث نزلت بعد ذلك)، ترى فما هو الأمر الخطير الذي يتوقف تبليغ الرسالة عليه والذي يخشى النبي(ص) من تبليغه معارض بعض الناس؟

أمر النبي(ص) أن يتوقف الركب وأن يجعلوا له منبراً من بعض الصخور، وكان الوقت حاراً والوقت ظهراً، وقد أمر أن يرجع من سبقه وأن ينتظر من لحقه، كل ذلك لكي ينبّه النبي(ص) إلى أن الأمر شديد الأهمية. ثم لمّا اجتمع الناس وقف(ص) خطيباً فقال فيما قال: ‹‹يا أيها الناس ألستم تشهدون بأن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن الجنة والنار حق وأن الله يبعث من في القبور؟›› فقالوا: نعم؛ ثم قال(ص): ‹‹ألستم تشهدون بأني أولى بكم من أنفسكم؟›› قالوا: بلى يا رسول الله، فرفع(ص) بيد علي بن أبي طالب عالياً حتى بان بياض إبطيه وقال: ‹‹من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله››؛ بعدها أمرهم النبي(ص): ‹‹ألا فليبلّغ الشاهد الغائب››. ثم أمر المسلمين أن يبايعوا علياً خليفة له(ص)، فبايعوا جميعاً، حتى قال عمر بن الخطاب: "بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة".

ثم ما غادر الناس المكان حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (المائدة3).

هذه الواقعة، وهي مروية في 360 كتاباً من كتب أهل السنة، وعن طريق 110 من الصحابة و84 من التابعين، تكاد تكون فريدة في تواترها واشتهارها. ثم هي واضحة في نصب علي(ع) سيداً على المسلمين، أولى بهم من أنفسهم، كما كان النبي(ص): ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الأحزاب:6. ثم أن دعاء النبي(ص) بأن يوالي الله من يوالي علياً وينصر من ينصره ويخذل من خذله توجب على جميع المسلمين أن يفعلوا الشيء نفسه فيوالوه وينصروه ولا يخذلوه، سواء في حروبه ومواقفه وقتها أو بعد ذلك في موالاة خطه القويم في أبنائه الطاهرين.

وروى النسائي (تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ص 50 – 51) بسنده عن زيد بن أرقم قال: "لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، ونزل غدير خم، أمر بدوحات فأقمن، ثم قال: ‹‹كأني دعيت فأجبت، وإني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض››، ثم قال: ‹‹إن الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن››، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه، فقال: ‹‹من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه››، فقلت لزيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه ما كان في الدرجات أحد، إلا رآه بعينه، وسمعه بأذنيه".

مصادر الحديث

أما مصادر الحديث فكثيرة، أهمها:

من المحدثين الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج4 ص281، والبيهقي في سننه (يذكر في ج10 ص14 يذكر حديثاً لعلي(ع) يذكر فيه تعميم النبي(ص) له في يوم الغدير بعمامة، وهي إشارة إلى مناسبة حافلة وإلا ما معنى إلباسه عمامة؟)، والهيثمي في مجمع الزوائد ج1 ص9 وغيرها، والبخاري في تاريخه ج1 ص374 رواية 1191 و ج4 ص193 رواية 2458 و ج6 ص240 رواية 2277 (ولكنه لم يروه في الجامع الصحيح، وهذا واحد من العديد من الأحاديث التي رواها البخاري في تاريخه ولكنه لم يروها في الجامع المسمى صحيح البخاري مما ندعو القارئ أن يلتفت إلى حقيقة أن ليس كل حديث لم يروه البخاري، أو مسلم، في الصحيحين ليس صحيحاً)، والذهبي في تذكرة الحفاظ من طرق عديدة منها ج1 ص10 و ج3 ص1043.

ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج3 ص428، والثعلبي في تفسيره، والرازي في تفسيره ج3 ص636، ومن المتأخرين الآلوسي في تفسيره ج6 ص61.

ومن المؤرخين الشهرستاني في الملل والنحل، وابن عساكر في تاريخ دمشق عشرات الروايات في الأجزاء 13 و 18 و 25 و 42، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج8 ص334 و ج13 ص340 و ج19 ص328 والتي فيها يبخبخ عمر لعلي مهنئاً. ومن المتأخرين السمهودي في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج2 ص173 من أهم كتب المتأخرين في تاريخ المدينة المنورة، وكثير غيرهم.

وقد عد الباحثون الرواة من الصحابة والتابعين الذين تنتهي إليهم الروايات فكانوا 110 من الصحابة و84 من التابعين، منهم ابن عباس وأبو هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعلي(ع) وأبو الهيثم بن التيهان وأبو أيوب

الأنصاري والمقداد بن الأسود وآخرون. هذه الأعداد الغفيرة من الرواة لم تقيض لحديث شريف، وما ذلك إلا لكثرة من حضر ذلك اليوم المشهود من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن أسلم بعد فتح مكة ومن وافى النبي(ص) في حجة الوداع.

(4) حديث الإثني عشر خليفة

وهو قول النبي(ص): ‹‹يكون بعدي إثنا عشر أميراً›› أو ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة››.

مما يلفت نظر كل باحث في موضوع الإمامة، ولاسيما فيما يعرضه شيعة أهل البيت(ع) من حجج يبنون عليها موقفهم العقدي من الإمامة، هو هذا العدد: 12. فإن حديث النبي(ص)، الذي رواه المحدثون في كتبهم بألفاظ مختلفة، ينص على: إثني عشر شخصاً يكونون بعده، أمراء أو خلفاء أو قيّمين.

وفي بعضها توصيف لحال الدين في ظل هؤلاء الأمراء أو الخلفاء ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً›› أو ‹‹الإسلام لا يزال عزيزاً›› أو ‹‹لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً›› أو ‹‹لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة››. وفي بعضها الآخر توصيف لحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً›› أو ‹‹لا يزال أمر أمتي صالحاً››. وفي هذه الأحاديث حصر لانتماء هؤلاء الإثني عشر إلى قريش، وبعضها في بني هاشم. وفي بعضها الإشارة إلى خذلان الناس للإثني عشر ‹‹لا يضرّهم من خذلهم››. وأنهم في الحصيلة النهائية منتصرون ‹‹ينصرون على من ناواهم››.

فقد روى الطبراني (المعجم الكبير ج2 ص213) عن جابر بن سمرة عن النبي(ص): ‹‹يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيِّماً لايضرهم من خذلهم›› وروى (ج2 ص265) عن جابر بن سمرة قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يخطب على المنبر ويقول: ‹‹اثنا عشر قيماً من قريش لايضرهم عداوة من عاداهم››".

عدد الإثني عشر

رويت روايات عديدة بألفاظ متقاربة، منها أن الراوي سمع النبي(ص) يقول: ‹‹يكون اثنا عشر أميراً››، ثم قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح البخاري ج4 ص175، والترمذي ج2 ص45).

أو قوله(ص): ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم إثنا عشر رجلاً››، ثم قال(ص) بصوت خفيض: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح مسلم ج2 ص191).

ومنها قوله(ص): ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة››، ثم قال(ص) بصوت خفيض: ‹‹كلهم من قريش›› (سنن أبي داود ج2 ص107)؛ أو ‹‹ألا إن الإسلام لا يزال عزيزاً إلى اثني عشر خليفة...كلهم من قريش›› (سنن أبي داود ج2 ص180).

فمن هم هؤلاء الإثنا عشر؟

الروايات أعلاه حددت العدد بإثني عشر، ولكنها لم تشخصهم. إلا أن هناك روايات تحدد هؤلاء بأنهم علي(ع) وأولاده. على أن هذه الروايات تعد ضعيفة عند أهل السنة فلا يعتد بها في البحث، ولكني أذكر اثنتين منها، مع

تعليق توضيحي ممن أخرجهما، لأن هؤلاء الإثني عشر الذين تحددهم يتوافقون بالضبط مع الإثني عشر الذين يستنتجون من روايات العدد أعلاه.

روى الشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودة (ج2 ص315 رواية 909) عن سلمان قال: "دخلت على النبي(ص) فإذا الحسين على فخذيه وهو يقبّل خديه ويلثم فاه ويقول: ‹‹أنت سيد إبن سيد أخو سيد، أنت إمام إبن إمام أخو إمام، أنت حجة إبن حجة أخو حجة أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم المهدي››. وحديث ثالث (باب 95 من المناقب) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي(ص) قال: ‹‹يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أولهم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف بالباقر، ستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرءه مني السلام، ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم القائم، إسمه إسمي وكنيته كنيتي إبن الحسن بن علي...››

يعلق القندوزي (ينابيع المودة ص446): "قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده(ص) اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان، وتعريف المكان، علم أن مراد رسول الله(ص) من حديثه هذا الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذا لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء من بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر، وإخفاء صوته(ص) في هذا القول يرجح هذه الرواية، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم. ولا يمكن أن

يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلة رعايتهم الآية ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ وحديث الكساء. فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته(ص)، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله. وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم(ص)، وبالوراثة، واللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق، وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى، أي أن مراد النبي(ص) الأئمة الإثني عشر من أهل بيته، ويشهد له ويرجحه، حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها...ومما يؤكد إمامتهم عليهم السلام تتبع الحكام لهم في العهد الأموي والعباسي، مع عدم تصديهم لطلب الحكم والرئاسة، كل ذلك لما عرفه المسلمون لهم من الإمامة، لنص الرسول الأعظم(ص) عليهم. ومما هو جدير بالذكر: أن الإمام الحسن العسكري(ع) استشهد وهو في الثامنة والعشرين من عمره الشريف، فكان الطلب الحثيث من الدولة في التفتيش عن ولده، حتى أنهم حبسوا بعض جواريه خوفاً من أن يكون لدى بعضهن حمل، كل ذلك لما علموه من أن الأئمة اثنا عشر وأن آخرهم قائمهم، وإلا ما معنى الطلب الشديد على طفل في الخامسة من عمره، وما مقدار أثره على الدولة".

أقول: وجدت هذا الحديث في غاية الأهمية في أي بحث في الإمامة، فمن المعروف الصراعات والنزاعات والكوارث التي حصلت في الأمة جراء أمر الإمامة والخلافة والمُلك، فعندما ينص النبي(ص) على إثني عشر خليفة أو أميراً أو قيّماً من بعده فلا بد من النظر في شأن هؤلاء، أولاً لأن النبي(ص) لا يقول

ذلك عبثاً فإنه ﴿وَما يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾ (النجم:3-4)، وإنما أراد التنبيه إلى هؤلاء، ولاسيما وهو يحدد أوصافاً لحالهم مع الأمة وحال الأمة معهم، بل وحال الدين في ظلهم، وثانياً لأن إشارة النبي(ص) إلى أنهم منصورون لا يضرهم من خذلهم يجعل المرء يفتش في المعنى وفي الواجب تجاهه.

إن ما أشار إليه الشيخ سليمان القندوزي يقطع الشك في أن هؤلاء الإثني عشر لا يمكن أن يكونوا من الأمويين ولا من العباسيين (ونحن نضيف ولا ممن جاء بعدهم من العثمانيين الذين هم ليسوا من قريش أصلاً). كما أن عدم إيمان أي طائفة من طوائف المسلمين بإثني عشر إماماً عدا طائفة الشيعة الإثني عشرية (وإسمها من هذا العدد قيد البحث) لا يجعل هناك مجالاً للخلاف فيمن هم هؤلاء. لأنه إن كان الإثنا عشر الذين تؤمن بهم الشيعة الإثني عشرية ليسوا أولئك الإثني عشر في أحاديث النبي(ص) فأين صار أولئك الإثني عشر الذين أشار النبي(ص) إليهم، وفي إشارات تحدد معالم واضحة لهم؟

النقطة الهامة الأخرى في حديث النبي(ص) هي التي تعطي وصفاً لحال الدين وحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر. فإن الدين أو الإسلام يبقى "عزيزاً أو منيعاً أو قائماً"، وهذا غير مشاهد على المستوى الخارجي لأن الجمود والتخلف هو الصفة الغالبة منذ قرون. فلا بد أن يكون المعنى في عزة الإسلام ومنعته هو في حقيقة الإسلام والدين الذي يمثله هؤلاء الإثنا عشر. نفس الشيء في وصف حال الأمة "صالحاً أو ماضياً" في ظل هؤلاء الإثني

عشر، فالمعنى هو: إن الأمة إذا ما اتبعت هؤلاء الإثني عشر فإن أمرها سيكون صالحاً أو ماضياً.

أما الواجب تجاهه: هل التفرج على تعامل الأمة مع هؤلاء الخلفاء على أساس أنه صراع على السلطة، أم الاصطفاف معهم، أم مع أعدائهم؟ إنه(ص) قال: «لا يضرهم من خذلهم» و «ينصرون على من ناواهم»، فهل هم الحكام المسيطرون على السلطة؟

قلنا أن تحديد عدد الخلفاء أو الأمراء بإثني عشر لا ينطبق إلا على أئمة أهل البيت(ع)، وأن أي مراجعة سريعة خاطفة للتاريخ تثبت بشكل قاطع أن هؤلاء الإثني عشر خليفة من أهل البيت(ع) خذلهم معظم الأمة، وأنهم ناواهم الحكام والولاة وبعض العلماء وكثير من الناس، ولكن – في نفس الوقت – كانوا يزدادون ارتفاعاً واشتهاراً، دون أن "يضرهم من خذلهم"، وكان الأمر ينتهي بهم إلى حسن الذكر والحب الخالد عند الناس مثلما ينتهي بمن ناواهم إلى سوء الذكر لمن ناواهم عند الناس، من باحثين ومؤرخين وشعراء وعلماء وعوام، وهذا هو النصر الحقيقي.

(5) أحاديث المهدي المنتظر(ع)

أخرج ابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي أن النبي(ص) قال: «المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة». ورواه أحمد في المسند (ج1 ص84) وغيره.

وأخرج أيضاً في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي فيه إقبال فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي(ص) اغرورقت عيناه وتغيّر لونه، فسئل عن ذلك، فقال(ص): ‹‹إنا أهل بيت إختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعطونه، فيقاتلون فيُنصرون فيُعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج››.

وهناك أحاديث مختلفة في خروجه(ع) وأنه يملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً (سنن أبي داوود ج27 كتاب المهدي، ومستدرك الحاكم ج4 ص557، وأسد الغابة لابن الأثير ج1 ص259 وغيرهم).

وفي رواية أخرجها أبو داوود في سننه ج27 ص134) عن أم سلمة أنها سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹المهدي من عترتي من ولد فاطمة›› (رواها أبو داود في سننة ج27 ص134، والحاكم في المستدرك ج4 ص557، وابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي وغيرهم).

أحاديث المهدي + حديث الإثني عشر

إجمع هذه الأحاديث مع حديث الإثني عشر خليفة تحصل على نتيجة أن المهدي المنتظر هو الإمام محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن

علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذين، مع الإمام الثاني الحسن بن علي(ع)، يتمون عدد الإثني عشر هؤلاء.

(6) آية المودّة

وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ الشورى:23. اللّه تعالى يأمر نبيه(ص) أن يقول للمسلمين أنه لا يريد منهم أجراً على تبليغه القرآن، أو الدين، سوى "المودة في القربى".

أما دلالة الآية فإنه يكفي القول أنه طالما أن اللّه تعالى لم يأمر المسلمين بأداء أجر أعظم نعمة في حياتهم، وهي الإسلام، غير مودة أهل البيت(ع) فلا بد أن لأهل البيت(ع) منزلة خاصة فريدة. فهل كانت هذه المنزلة تشريفية، كالوجاهة الاجتماعية، أو لكي يسر نبيه(ص)؟ هل أن اللّه تعالى يتعامل مع خلقه بهذا الشكل؟ لا بد أن منزلتهم تلك إنما هي لدورهم المميز في حمل الأمانة بعد النبي(ص)، وإلا تصبح المسألة وكأنها مجاملات مع النبي(ص)، واللّه تعالى لا يتعامل بالمجاملات ولا بمنطق القرابات.

وقد ذهب جميع علماء الشيعة دون استثناء، والكثير من علماء أهل السنة، أن المراد بالمودة في القربى هي مودة قرابة النبي(ص) وهم عترته من أهل بيته(ع) – والمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تودّوا أهل بيتي. منها ما أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وابن أبي حاتم كما في تفسير الآية 14 من

الآيات في الصواعق لابن حجر أن النبي(ص) سئل بعد أن نزلت الآية: "يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال(ص): ‹‹علي وفاطمة وابناهما››". (أخرجه الثعلبي والبغوي في تفسيريهما والجلال السيوطي في الدر المنثور وغيرهم.)

وهنا تجدر ملاحظة، إن كل من يقرأ القرآن الكريم يجد أن الأنبياء(ع) السابقين لم يطلبوا أجراً على تبليغ رسالاتهم، فلماذا يطلب خاتم الأنبياء(ص) أجراً على التبليغ؟ تجيب عن ذلك آيات تأمر النبي(ص) بالقول: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إنْ أَجري إلاّ عَلى اللّه﴾ سبأ:47، أو بالقول: ﴿قُلْ ما أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إلاّ مَنْ شاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ الفرقان:57. إذاً، طلب الأجر في آية المودّة إنما هو لمصلحة الذين يعملون بالآية، وليس للنبي(ص) الذي ضمن جزاءه من ربه الذي أرسله.

(7) شبهات حول شيعة آل محمد(ص)

وبما أن الحجج القرآنية والحديثية والعقلية تصطدم – من خلال التجهيل والكيد المنحرف – بشبهات ضد من يعمل بهذه الآيات والأحاديث كي يتم الالتفاف عليها، أي صرف نظر المستمع أو المتلقي إلى أمور أخرى مع أن المفترض أنه لا شيء يعلو على الكتاب والسنة – ولكن هكذا طريقة القوم. لذا، أجد من المناسب إيراد بعض الشبهات التي تثار ضد شيعة آل محمد(ص) والرد الموجز عنها. (ولمن يريد التفاصيل فهناك الكثير الكثير مما كتبه

الشيعة، لاسيما علماؤهم الكبار وباحثوهم المحققين؛ وقد حاولت المساهمة بشيء صغير من ذلك – إعتماداً على بعض ما كتبوا مع إضافات مما انقدح في الذهن – تجد بعضه مبثوثاً في كتاب "العودة إلى الأصل إلى آل محمد" وكتاب "أنزلوهم بأحسن منازل القرآن" المطبوعين، أيضاً الموجودين على موقعي على شبكة الانترنت، إضافة إلى سلسلة مقالات "شبهات وردود" وغيرها من مقالات ومناقشات على الموقع: www.return2origins.com)

ما سأذكره هنا هو شبهات غالباً ما تثار لأنها إما سهلة الاطلاع من قبل الآخرين (كالأذان للصلاة) أو مما يسهّل عملية إبعاد الناس عن الشيعة من أيسر الطرق لفضاعة التهمة (كتهمة تحريف القرآن).

1. الأذان للصلاة: فيه فصلان لا يوجدان عند أهل السنة: الأول قول (أشهد أن علياً ولي اللّه)، والثاني (حيّ على خير العمل). أما الأول فليس واجباً بل هو مستحب فقط، ومن تلفظ به معتقداً أنه واجب بطل أذانه. وقد أضافه الشيعة منذ القرن الأول رداً على لعن علي وأولاده من على منابر المسلمين أيام الدولة الأموية، والذي سنّه معاوية بن أبي سفيان، وذلك لتأكيد مكانة علي كونه ولياً للّه وليس ملعوناً كما كانوا يعلنون، ثم جرت العادة عليه إلى اليوم. فإضافة هذا الفصل يناظرها إضافة فصل (الصلاة خير من النوم) في أذان الفجر عند أهل السنة. وأما الثاني فهو فصل أصيل في الأذان يجب التلفظ به مرتين بعد (حيّ على الفلاح)؛ وروى بعض المؤرخين أن الذي ألغاه هو الخليفة عمر بقوله: "ثلاث كنّ على عهد رسول الله وأنا أحرمهنّ وأعاقب عليهن: متعة النساء ومتعة الحج وحيّ على خير العمل"، بل روي

قول علي بن الحسين(ع) وصفه هذا بأنه "الأذان الأول"، كما روي أن غيره من الصحابة كان يؤذن بها (سنن البيهقي).

2. صلاة الشيعة: تختلف في بعض الوجوه عن صلاة أهل السنة مثل إسقاط اليدين بدلاً من التكتف وغير ذلك، وهذا اختلاف في الفقه. وقد قال رسول اللّه(ص): ‹‹صلّوا كما رأيتموني أصلي››، ولكن يبدو أن الاختلاف في الصلاة كان منذ العصر الأول، فقد روى المحدثون والمؤرخون قول الصحابي عمران بن الحصين، بعد بيعة علي(ع) وصلاته بالناس: "صلى بنا علي صلاة كدنا ننساها"، وفي رواية عن أبي موسى: " صلى بنا علي يوم الجمل صلاة ذكرتنا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإما أن نكون نسيناها، وإما أن نكون تركناها" (سنن ابن ماجة).

3. السجود على التربة الحسينية: وفيها أمران: الأول السجود على التراب لقول النبي(ص): ‹‹جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً›› (صحيح البخاري وغيره) ولأن الروايات دلت على أن النبي(ص) والصحابة كانوا يسجدون على التراب حتى تحت المطر وحتى في الحر الشديد، فكان الحكم الشرعي أن السجود لا يجوز إلا على الأرض أو ما تنبت الأرض مما لا يؤكل ولا يلبس. والأمر الثاني غير واجب وهو السجود على تربة مصنوعة من تراب كربلاء، والهدف منها تذكير الإنسان - وهو في أقصى حال من العبودية للّه - بمبدأ التضحية في سبيل اللّه كما فعل الإمام الحسين(ع). فالسجود، إذاً، يجوز على أي تراب أو على ما تنبت الأرض مما لا يؤكل أو يلبس، كالورق المصنوع من الأرض فهو لا يؤكل ولا يلبس وهكذا.

4. ليس عند الشيعة قرآن آخر: كما يفتري بعض مرتزقة الكتاب، فإن القرآن الذي يقرأونه في بيوتهم ومساجدهم ومدارسهم ويتلونه في صلواتهم إنما هو القرآن الذي بين يدي باقي المسلمين، فهم بأجمعهم - عالمهم وجاهلهم - يعتقدون بأن القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو نفسه الذي نزل على النبي(ص) بلا حرف زائد أو ناقص. أما ما يشنع عليهم أن عندهم مصحف فاطمة فهذا ليس قرآناً، وإنما هو من قبيل كتاب الأحاديث النبوية كما روي، وهو ليس موجوداً الآن على الإطلاق؛ كما لم يتمكن أحد من أن يجد قرآناً آخر عند الشيعة على الرغم من كبس ومداهمة ومصادرة آلاف البيوت الشيعية في بلدان كثيرة.

5. عدالة الصحابة أجمعين: دون استثناء لا تؤمن بها الشيعة، بل يعتقدون أنهم كانوا على درجات متفاوتة من الإيمان والعلم والعمل، بل أن فيهم منافقين غير مؤمنين كما نص عليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ التوبة:101، وهي صريحة بأن المنافقين ليسوا من الأعراب فحسب، بل من أهل المدينة أيضاً، أي من الصحابة. وسورة التوبة سمّيت الفاضحة لأنها فضحت المنافقين والذين في قلوبهم مرض (أي لم تسلب عنهم صفة الإيمان ولكنهم يعانون من اهتزاز كبير فسماهم المولى عز وجل العليم بما في قلوبهم "الذين في قلوبهم مرض")، هذا علاوة على الكثير من الآيات الكريمة التي تعد بالنعيم لمن آمن منهم كما في قوله سبحانه: ﴿محمد رسول اللّه والذين معه...﴾ إلى قوله: ﴿وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ الفتح:29 والتي تصرح

بأن الوعد بالمغفرة والأجر العظيم لمن آمن وعمل الصالحات فقط. ولا شك في أن المحاسبة ستكون على سيرة الصحابي من أول إسلامه إلى آخر يوم من عمره، على عهد رسول اللّه(ص) وبعد وفاته. وقد أخرج البخاري في صحيحه – والذي أجمع علماء السنة على صحة جميع ما جاء فيه وعلى وجوب العمل به – عدداً من الأحاديث تسمى أحاديث الحوض، أي حوض النبي(ص) في الآخرة، صرّحت بوضوح تام بأن عدداً كبيراً من الصحابة سينتهون في النار يوم القيامة لأنهم بدّلوا مواقفهم بعد النبي(ص). من هذه الأحاديث قوله(ص): ‹‹يؤتى برجال أعرفهم ويعرفونني فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: إلى أين؟ فيقال: إلى النار واللّه، فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً لمن بدّل بعدي›› وفي بعضها ‹‹فواللّه لا أرى يخلص منهم إلا مثل همل النّعم›› أي لا يبقى منهم ليدخل الجنة إلى مثل النعم الشاردة عن قطيعها - وهي الأقل منها كما هو معروف.

وقد انقسم الصحابة على أنفسهم بعد وفاة النبي(ص) ورمى بعضهم بعضاً بالفسق والكفر والارتداد، وحارب بعضهم بعضاً، وكل ذلك مما لا شك في وقوعه، فكيف يكون الكل سواسية؟ كيف يكون موقفنا من عثمان وعمار واحداً وقد ضرب الأول الثاني حتى فتق بطنه وأغمي عليه لساعات، مع أن النبي(ص) قال: ‹‹ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار؟ عمار جلدة ما بين عينَيّ››. وكيف يكون موقفنا واحداً من علي(ع) وطلحة والزبير وقد حارباه حتى قتلا؟ وكيف يكون موقفنا واحداً من علي(ع) ومعاوية وعمرو بن العاص وقد حارب الثاني والثالث الأول حرباً طاحنة كادت أن تفني قبائل

العرب رغبة في الحكم ليس إلا، وقتل فيها مئات الصحابة كعمار وأضرابه؟ ألم يدع النبي(ص) يوم الغدير: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» بما يعني أن اللّه صار عدواً لمن عادى علياً(ع)؟ أم أن دعوة النبي(ص) ليست مستجابة؟!

إن الشيعة تجل وتنزل بأعلى المنازل أولئك الصحابة الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، فلم يبدلوا ولم يغيروا ولم يحدثوا ولم ينقلبوا على أعقابهم بعد وفاة النبي(ص). فهؤلاء رضي اللّه عنهم ورضوا عنهم، لهم في أعناق المسلمين الفضل العظيم وواجب التكريم والتعظيم والدعاء ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ الحشر:10.

6. التضرّع عند قبور الأئمة(ع) والصالحين: والذي يقوم به الشيعة ليس شركاً كما يشنع عليهم البعض، لأنهم إنما يصلون للّه ويسجدون ويركعون ويسبحون له وحده لا شريك له، ولكنهم يطلبون حاجاتهم من اللّه تعالى في تلك الأماكن الطاهرة التي تحف بها الملائكة، وبشفاعة هؤلاء المطهرين كونهم أقرب إلى اللّه من غيرهم وبالتالي فإنهم أقرب إلى استجابة اللّه تعالى من غيرهم. وإلا، فإنه سبحانه وتعالى هو المستقل في تصريف الكون كيف يشاء، ولا يملك أحد من الخلق التصرف في ذرة واحدة دون أمره. إلا أنه يمنح الشفاعة لمن يشاء من خلقه أن يشفعوا لمن يشاء ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ الأنبياء:28. ثم ها هو القرآن يؤصّل لهذه الممارسة بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ النساء:64، فما معنى أن يأتوا النبي(ص) ويستغفر لهم إذا كان استغفارهم اللّه مباشرة يكفي؟ وإذا كان هذا للنبي(ص) فلماذا لا يجري للأنبياء والأئمة(ع) لنفس السبب، أي القرب من اللّه تعالى؟ وعلى أية حال، فإن هذه الممارسة لا تختص بها الشيعة وحدها، بل يقوم بها معظم أهل السنة، إلا أنها صارت قضية خلافية بسبب غلبة بعض الجهات المذهبية على الكثير من مقدرات المسلمين.

7. مجالس ومواكب التعزية في محرّم ويوم عاشوراء: بالخصوص إنما هي تذكير للمسلمين بذلك اليوم العظيم الذي ضرب فيه الإمام الحسين(ع) وأهل بيته وأصحابه أروع الأمثلة في التضحية بالنفس (والجود بالنفس أعلى غاية الجود) من أجل تنبيه الأمة - التي كانت قد فقدت عنفوانها ومقاومتها للظلم - إلى الاتجاه الخطير الذي تسير إليه في ظل دولة بني أمية وتحت خلافة شاب مستهتر سكّير لا يقيم للشريعة وزناً، وإنما وصل إلى الملك بتنصيب أبيه له قهراً لإرادة الأمة بعد أن شرط قبل ذلك للإمام الحسن(ع) شروطاً كثيرة لم يفِ بها. ولا شك في أن تضحية الحسين(ع) فريدة في تاريخ البشرية جمعاء، فإنه ضحّى بأولاده وإخوته وأولاد أخيه وعمومته وخلّص أصحابه - ومنهم صحابة النبي(ص) - وحتى بإبنه الرضيع، قبل أن يضحي بنفسه ويقدمها قرباناً لربه الذي أخلص له في العبودية والطاعة، مقتفياً أثر جده المصطفى(ص) الذي طلّق الدنيا فلم تفتنه ولم تلهه عن ذكر اللّه وعن العمل من أجل بسط شرعة اللّه على الأرض. ولعلنا اليوم أكثر ما نكون حاجة إلى التذكير بهذه الملحمة الكبرى ونحن نجد أنفسنا بين مخالب الأعداء الذين يحيطون بنا من كل جانب، بل والذين زرعوا في بلادنا ذلك العدو الذي بات يهدد الأمة

بالتغلغل فيها بعد أن فتحت له الأبواب من قبل الأجراء والمهزومين. إنه لمما يحز في النفس أن يجد الإنسان أن باحثين ومفكرين وشعراء على غير ملّة الإسلام يكتبون ويتغنون بذلك اليوم الخالد في الوقت الذي يتهجم فيه بعض المسلمين على شيعة أهل بيت نبيهم(ص) لأنهم أطاعوا اللّه فيما أمر من مودة القربى، المطهرين من الرجس، أولياء الأمر، تركة النبي(ص) في الأمة، والثقل الأصغر الذي لا يأمن من الضلال إلا من يتمسك به مع الثقل الأكبر: كتاب اللّه العزيز.

نعم، هناك من الممارسات التي يقوم بها البعض ما هي خارجة عن الحدود الشرعية، وقد أعلن الكثير من علماء الشيعة صراحة بأنها ممارسات خاطئة لا تجوز مطلقاً، ولكن لا يمكن تنفيذ مثل هذه الأوامر دون سلطات. وعلى أية حال، فإن المسلمين - شيعة وسنة - يقترفون الخطايا كل يوم من شرب للخمر وزنا وسرقة، بل وقتل وهتك، لا يردعهم رادع من ضمير ولا قانون ولا شرع، فلم تميز ممارسات بعض جهلة الشيعة يوم عاشوراء - التي هي من منطلق ديني على الأقل - دون غيرها وتصبح هدفاً للهجوم؟

8. شعار "يا لثارات الحسين": وهو الذي يضرب على طنبوره اليوم أعداء الشيعة وبعض ممن يرددون كلامهم دون أدنى تدقيق، فيقولون أن هذا الشعار عندما يرفعه الشيعة في المناسبات الدينية، كالمسيرات التي يذهبون فيها لزيارة مراقد الأئمة(ع) في العراق، أو يكتبونه على اللافتات في الحسينيات، يقصد منه أن يثأر الشيعة للحسين(ع) من أهل السنة، وصاروا يقولون أن القتل الطائفي في العراق هو عبارة عن قتل الشيعة للسنة ثأراً للحسين(ع).

جواباً على هذه الشبهة-الفرية أقول:

(أولاً) لم يحدث، لا في الماضي البعيد ولا القريب وحتى يوم أمس، أن قُتِلَ سنّيٌ ثأراً للحسين(ع)، إذ لم يقل أي شيعي أنه قتل سنيّاً تحت ذلك الشعار "يا لثارات الحسين"، ولم يدّع سنّي واحد أن أخاه أو أباه أو أي أحد من أهله أو أقربائه أو أصدقائه قتله الشيعة ثأراً للحسين(ع)، على الرغم من شدة القتل الطائفي الذي حصل في العراق مثلاً في السنوات الماضية.

(ثانياً) كما لم يحدث أن حصل أي شيء من ذلك مطلقاً ثأراً للقتل الطائفي ضد الشيعة، سواء بالمتفجرات أو القنص أو تحت التعذيب في السجون أو في المظاهرات التي يخرجون فيها يطالبون بحقوقهم، وهو قتل لم يزل يجري على الشيعة منذ القرن الأول كما يعرفه أي مطلع على التاريخ ولو بشكل بسيط، ومن يحب فهذه صفحات الانترنت وكتب التاريخ تروي قصة النزيف الشيعي عبر أربعة عشر قرناً من الزمان.

(ثالثاً) لم يقم الشيعة بذلك ليس لعجزهم عن هذا، فلو أن بعض المواكب الحسينية المليونية أرادت ان تطبق على منطقة ما لاستطاعت بكل سهولة، ولكن هؤلاء الملايين الموالين لأهل البيت(ع) الموالاة الحقة يستمعون كل يوم تحت منابر المآتم سيرة أهل البيت(ع) في العفو والصفح؛ في الوقت الذي أنشئت دول، لا تزال بيننا، على القتل الذريع لجميع المسلمين المخالفين لهم في المذهب – سنة وشيعة –، والتي لا يزال جهازها الديني (الذين يسمونهم علماء) يستسهل الأفتاء بالتكفير والتفسيق لأقل شبهة، وهي فتاوى لم تزل دماء الشيعة والسنة وغير المسلمين تسيل كل يوم نتيجة لها.

(رابعاً) أصل شعار "يا لثارات الحسين" رفعه المختار بن عبيد الثقفي عندما خرج وأصحابه، سنة 67هـ، للطلب بثأر الحسين(ع) ممن شارك في القتل فعلاً وفي ذلك الوقت فحسب، والدليل أنه وأصحابه تتبعوا قتلة الحسين(ع) كعمر بن سعد وقتلوهم. بعد ذلك، لم نسمع أن أحداً، لا منهم ولا من غيرهم، استمر في قتل الناس بدعوى الثأر للحسين(ع). وعليه، فإن رفع الشيعة اليوم لهذا الشعار إنما هو تعبير عن الرغبة في الوقوف مع الحسين الشهيد(ع) ومن قتل من أهل بيته وصحبه الأبرار إلى درجة القتال والتضحية بالنفس – تعبير ليس إلا.

(خامساً) لو أن الذين يضربون على هذا الطنبور الخطير كانوا من المتسامحين والعافين عن الناس والذين يتورعون عن الدماء لعذرنا جهلهم، ولكن أن يكونوا ممن يفتون بقتل الناس، في كتبهم ومحاضراتهم وتبرعاتهم، ما نشاهده كل يوم بالصوت والصورة، فكيف نعذر استهتارهم بدماء المسلمين الأبرياء؟ هو يمارس القتل بالفعل، حتى إذا رددت عليه قال: أنظروا إنه يرفع شعار "يا لثارات الحسين" ويقتلني لأجل ذلك!

فليتق الله هؤلاء – إن كان قد بقي في زوايا دواخلهم المريضة شيء من تقوى، وليتق الله في عقله ونفسه كل من يستمع إلى هؤلاء ويصدقهم وهو يرى رأي العين ما يفعلونه بالأمة ما لا يمكن إلا أن يكون خدمة – عن علم – لأعدائها حتى وصل الأمر بهم إلى الاصطفاف إلى جانبهم ضد أتباع أهل البيت(ع)، وهو موقف حرام لا أدري إن كانوا سيحاولون تأصيله شرعياً كما كان يقوم أسلافهم بذلك عبر التاريخ.